القسم الثاني

التفسير واتجاهاته

كلامنا عن التفسير سيكون في أبواب ثلاثة: واحد في أصوله وآخر في تاريخه وثالث في اتجاهاته.

ونقدم بين يدي كلامنا هذا بحثاً في التفسير لغة واصطلاحاً والفرق بينه وبين التأويل.

التفسير:

ـ التفسير في اللغة: الايضاح والتبيين. ووزنه تفعيل من الفسر، وهو البيان والكشف. قال الله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾[1].

ـ التفسير في الاصطلاح: هو علم يفهم به كتاب الله وذلك ببيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه وقد يدعى التفسير تأويلا.

وقالوا في **تعريفه**: هو علم باحث عن معنى نظم القرآن بِحَسَبِ الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية.

والغرض منه:معرفة معاني النظم.

---

(١) سورة الفرقان: ٣٣.

وفائدته: حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة.

وموضوعه: كلام الله سبحانه الذي هو منبع كل حكمة ومعدن كل فضيلة.

وغايته: التوصل إلى فهم معاني القرآن واستنباط حكمه ليفاز به إلى السعادة الدنيوية والأخروية[1].

وقال أبو حيان في تعريفه: هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك[2].

التفسير والتأويل:

اختلف العلماء في تحديد معناهما:

فقال قوم: إنهما بمعنى واحد. وقال آخرون: التفسير أعم من التأويل لأنه يستعمل في الكتب الإلهية وغيرها، وأما التأويل فأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية[3]، تقول: فسرت الكلمة الواردة في بيت الشعر، ولا تقول: أولت ذلك.

وقالوا: أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والمفردات، أما التأويل فأكثر ما يستعمل في المعاني والجمل[4].

---

(١) «كشف الظنون» ١/٤٢٧.

(٢) «البحر المحيط» ١/١٣ - ١٤ وانظر شرحه لمفردات هذا التعريف هناك.

(٣) نقل ذلك الزركشي في «البرهان» ٢/ص ١٤٩ والسيوطي في «الاتقان» ٢/١٧٣ عن الراغب، وانظر مقدمة التفسير للراغب ٤٠٢ وهو ملحق بكتاب «تنزيه القرآن» للقاضي عبد الجبار.

(٤) «الاتقان» ٢/١٧٣.

وقد حقق شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله القول في كلمة (التأويل) في استعمال السلف والمتأخرين تحقيقاً جيداً ننقل فحواه فيما يأتي:

ـ قرر ـ رحمه الله ـ أن السلف استعملوا هذا اللفظ في معنيين:

* أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً.

* وثانيهما: هو نفس المراد بالكلام فان كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تأويلُه يقُول الذين نَسُوهُ مِن قبلُ قد جاءتْ رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاء فَيَشْفَعُوا لنا أو نُرَدُّ فنعملَ غيرَ الذي كنا نعملُ قد خسروا أنفُسَهُمْ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

وقرر أن (التأويل) في عرف المتأخرين هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به كقولهم: هذا الحديث مؤول، أي مصروف عن كذا محمول على غيره. ولا بد من دليل يعتمده المؤول[2].

وقد أورد السيوطي في «الاتقان» نقولا كثيرة عن العلماء في التفريق بينهما[3].

---

(١) سورة الأعراف: ٥٣.

(٢) انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» ١٣/٢٨٣.

(٣) «الاتقان» ٢/١٧٣.

الباب الأول

أصول التفسير

أصول التفسير مبحث مهم تفرقت موضوعاته في مقدمات بعض المفسرين وفي كتب أصول الفقه. ومن أشهر الذين أفردوه من المتقدمين ابن تيمية في رسالة خاصة طبعت بعنوان «مقدمة في أصول التفسير»، وأفرده بالتأليف من المتأخرين العلامة الشيخ عبد الحميد الفراهي من علماء الهند وترك رسالة عنوانها: «التكميل في أصول التأويل» يقول في مقدمتها: (ولم نحتج الى تأسيس هذا الفن لترك العلماء اياه بالكلية، فانك تجد طرفاً منه في أصول الفقه ولكنه غير تمام[1]).

والبحث في أصول التفسير ما زال متسعاً لمزيد من الدراسة والتأليف. وسنلمس هذا المبحث لمسات تتناول النقاط الثلاث الآتية:

١ ـ سنذكر أولا العلوم التي لا بد من تحصيلها ليتسنى لنا أن نفسر القرآن.

٢ ـ كما نذكر ما يشترطه العلماء عادة في المفسر.

٣ ـ ونشير الى أهم قواعد أصول التفسير.

* * *

(١) «التكميل في أصول التأويل» ص ١.

أولا: العلوم التي يحتاج اليها المفسر عديدة أهمها:

١ ـ اللغة والاشتقاق: لأننا باللغة نعرف معاني المفردات، وفهم حقائق الألفاظ المفردة يكون باستقصاء المعاني التي دلت عليها هذه الكلمة في آيات القرآن. ولا بد للوصول الى هذا المقصد من الاطلاع على معاني المفردات زمن التنزيل، إذ كلما استطعنا تحديد مدلول هذه الكلمة في ذاك الزمن كنا أقدر على فهم معنى الكلمة المراد.

قال مجاهد:

(لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)[١].

ومما يتصل بمعرفة المفردات معرفة المترادف والمشترك وما الى ذلك من أنواع اللغة. وكذلك فان معرفة الاشتقاق تعين على الفهم الدقيق للآية.

٢ ـ النحو والصرف: لأن فهم المعنى يتوقف في أحيان كثيرة على معرفة الاعراب، ويقع الذين يجهلون هذين العلمين ويتصدون للتفسير في أغلاط شنيعة كما حدث لبعضهم في شرح الآية: ﴿يومَ نَدْعُو كُلَّ أناسٍ بإمامِهِمْ﴾[٢] فقد فهموا الامام أنه جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم دون آبائهم قال الزمخشري: (وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن (أما) لا تجمع على (إمام))[٣].

٣ ـ الأدب وعلوم البلاغة: ذلك لأن مراعاة ما يقتضيه الاعجاز أمر لازم في التفسير، فلا بد من اشارة الى نواحي الجمال الفني في الآية وتحليلها.

---

(١) «الاتقان» ٢/١٨١.

(٢) سورة الاسراء: ٧١.

(٣) انظر «الاتقان» ٢/١٨١ وانظر «الأسرار المرفوعة» ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

ومن أجل ذلك كله كان التذوق الأدبي أمراً ضرورياً لكل من يتصدى للتفسير، ولا ينمو هذا التذوق إلا بعد طول معاناة لكلام البلغاء وقراءة آثارهم وحفظ مختارات منها، واطلاع على نتاج النقاد، ودراسة للشعر والرسائل والخطب واشتغال بالكتابة، قال الزمخشري:

(من حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز، ان يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح)[1].

٤ ـ علوم القرآن: ذلك لأن معرفة هذه العلوم من أهم الأدوات التي لا بد منها لعملية التفسير.

فمعرفة أسباب النزول تساعد كثيراً على فهم الآيات الفهم الصحيح الدقيق، وتجنب المفسر أغلاطاً كان من المحتمل أن يقع فيها.

وكذلك فان معرفة المكي والمدني تعين في ادراك معاني الآيات، ولنأخذ على ذلك مثلا آيات الجهاد، فاننا ـ عندما نعرف المكي والمدني منها ـ نتصور الجهاد على الوجه الصحيح السليم [2].

وكذلك فان معرفة الناسخ والمنسوخ لها أهميتها القصوى في تفسير الآيات التي تقرر حكمين مختلفين في موضوع واحد.

وكذلك فان المحكم والمتشابه من الأمور الأساسية في التفسير، حتى نتخلص من عناء الدخول في متاهات المتشابه، ولنصرف جهدنا وطاقاتنا في تفسير المحكم.

٥ ـ علم أصول الدين والتوحيد: وذلك لأن هذا الكتاب الكريم ـ كما

---

(١) «الاتقان» ٢/١٨١.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٣/١٥٨ و«معالم في الطريق» ٧٥ وتفسير سورة الأنفال وسورة براءة من كتاب «في ظلال القرآن».

سبق أن أسلفنا ـ يتضمن نظرة جديدة الى الكون والحياة والانسان متمثلة في العقيدة الاسلامية، فادراك أصول هذه العقيدة يساعد مساعدة تامة في شرح الآيات الكريمة المتعلقة بذلك.

٦ ـ علم أصول الفقه: لأننا بواسطة هذا العلم نستطيع أن نعرف استنباط الاحكام من النص، ووجه الاستدلال على الأحكام.

ولعل هذا العلم من أهم العلوم التي نستفيد منها في قواعد أصول التفسير.

٧ ـ الحديث النبوي والفقه والسيرة:

أما الحديث ففيه تفسير لعدد من آيات القرآن، إذ كانت مهمة النبي ﷺ الأولى تبيان ما نزل إليه، وفيه تفصيل للمجمل وبيان للمبهم.

وأما الفقه الاسلامي فانه يعرض الأحكام الاسلامية التي ذكرها القرآن مبوبة مجموعة، فيساعد استحضارها على تصور دقيق لمعاني آيات الأحكام.

وأما السيرة ففيها تجلية لكثير من الآيات، وذلك كما في آيات الأنفال التي تتحدث عن غزوة بدر، وآيات آل عمران التي تتحدث عن غزوة أحد.

٨ ـ علوم أخرى: كالعلوم الاجتماعية والعقلية والكونية وما يتصل بالثقافة العامة، فالتاريخ والجغرافيا والاجتماع وعلم النفس والفلك.. كل هذه العلوم مما يساعد على تفسير القرآن تفسيراً يتصل بحياة الناس.

* * *

ثانياً: الشروط التي يشترطها العلماء في المفسر:

ونستطيع أن نقسمها الى ثلاثة أقسام:

١ ـ شروط عملية: تتلخص باتقان المفسر قدراً جيداً من العلوم التي ذكرناها آنفاً.

٢ ـ شروط عقلية: وهي أن يكون المفسر موهوباً ذا قدرات عقلية ممتازة، قوي الاستدلال حسن الاستنباط ، قادراً على الترجيح إن تعارضت الأدلة، عارفاً اختلاف الأقوال على حقيقته، اذ كثيراً ما يكون الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد[١].

٣ ـ شروط دينية وخلقية: وهي أن يكون صحيح العقيدة، مؤدياً للواجبات الدينية، ملتزماً الآداب والأخلاق الاسلامية التي دعا اليها الاسلام وأن يكون محرراً من سلطان الهوى، شديد الخشية لله.

* * *

ثالثاً: قواعد أصول التفسير:

وسنقتصر على الاشارة الى أهمها، لأنني أرى ان محل ذكرها كتب أصول التفسير ذاتها. قال الفراهي:

(وهذه الأصول تقسم الى قسمين: الأول ما يعصم عن الزيغ في التأويل، والثاني ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله)[٢].

* ومن أهم الاصول التي يجب مراعاتها أن تكون خطوات التفسير متدرجة كما يلي:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن:

لاننا نجد أحيانا ان ما اجمل في موضع قد فُصِّل في موضع آخر كما سنذكر ذلك بالتفصيل في موضعه إن شاء الله.

٢ ـ تفسير القرآن بالسنة:

---

(١) وقد فصل ابن تيمية هذا في رسالته تفصيلا حسنا انظر ص ٣٨ من رسالة ابن تيمية وانظر «توجيه النظر» ص ٢ وانظر ص ٢١٠ من هذا الكتاب.

(٢) «التكميل في أصول التأويل» ص ١٣.

لأنها الشارحة للقرآن الموضحة له.

٣ ـ تفسير القرآن بما قاله الصحابة:

لأنهم شاهدوا من القرائن والأحوال التي رافقت نزول القرآن ما يجعل فهمهم أدق وأتم، ولأن لغة القرآن هي لغتهم يدركون من أسرارها بالفطرة ما لا يدركه المتأخرون بالتعلم.

* ومن القواعد ما يذكره الأصوليون من أنَّ صيغة الأمر إذا جاءت بعد حظر دلت على الاباحة وذلك كقوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وذَرُوا البيعَ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كُنْتُم تَعْلَمون. فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغُوا من فضلِ الله﴾[١].

فقوله تعالى ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ إنما هو للاباحة لا للوجوب.

* ومن القواعد ما ذكره ابن القيم في كتابه «بدائع الفوائد»[٢]. ومن ذلك قوله: (وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، وإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال نحو ﴿من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً﴾[٣] ونحو ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾[٤] ومن السكوت عن التحريم)[٥].

---

(١) سورة الجمعة: ٩ ـ ١٠.

(٢) انظر «بدائع الفوائد» ٢/٤ ـ ١٠ وقد نقل معظمها عبد الرحمن السعدي في كتابه «فوائد قرآنية» ١٠٥ ـ ١١٣.

(٣) سورة النحل: ٨٠ والآية بتمامها: ﴿والله جعلَ لكم مِنْ بيوتِكُم سكناً وجعلَ لكم مِنْ جُلودِ الانعامِ بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾.

(٤) سورة النحل: ١٦.

(٥) «بدائع الفوائد» ٦/٤.

الباب الثاني

تاريخ التفسير

سنلم في فصول هذا الباب المامة سريعة بتاريخ التفسير، نستعرض نشوءه أيام النبي ﷺ ونموه في عهد الصحابة والتابعين، ثم نتحدث عن توسعه فيما بعد ذلك حتى ننتهي في استعراضنا الى العصر الحديث، وسنقسم كلامنا حول تاريخ التفسير الى أربعة فصول:

الفصل الأول

التفسير في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

القرآن كتاب عربي مبين، نزل على الرسول الكريم ﷺ ليبلغه قومه العرب الفصحاء البلغاء، فلم يستغلق فهمه بالاجمال على معظمهم، إذا استثنينا ما تشابه منه ﴿هُوَ الذي أَنْزَلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابِهَاتٌ، فأمَّا الذينَ في قلوبهم زيغٌ فيتَّبعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابتغاءَ الفتنةِ، وابتغاءَ تأويلِهِ، وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ﴾ (١).

فهمه العرب، وكان سبباً في دخول عدد كبير منهم في الاسلام، ولكن معاني القرآن لا تحد ولا يحاط بها، ولما كان الرسول ﷺ أكثر الخلق فهماً لهذا الكتاب كان من مهماته الأساسية ان يبين للناس ما نزل اليهم، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبينَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾ (٢).

والقرآن يحوي ـ كما سبق أن أشرنا لذلك ـ نظرة إلى الحياة والكون والانسان جديدة على العرب، ومن أجل ذلك فهم محتاجون الى مزيد من الشرح والبيان لها حتى يقفوا عليها، ويعوها حق الوعي، لا سيما وأن في القرآن المجمل، والعام، والمشكل، وفيه مفردات لا يفهمها بعضهم، فقد كان بعض الصحابة يكتفي بفهم المعنى الاجمالي لآيات القرآن ويؤخذ

---

(١) سورة آل عمران: ٧.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

بسحرها وجمالها، وإننا لنقرأ في أخبارهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يعرف معنى كلمة (الأب) في قوله تعالى: ﴿وفاكهة وابا﴾ [1] ونقرأ ان ابن عباس لم يعرف معنى كلمة (فاطر) حتى سمع أعرابياً يوردها في جملة: اخرج أبو عبيد في «الفضائل» من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها [2].

ونقرأ أن عدي بن حاتم فهم الخيط الأبيض والخيط الاسود بالمعنى المادي، فجاء بعقالين احدهما أبيض والآخر أسود، وظن أنه ما لم يتبينا فللانسان الصائم أن يأكل ويشرب، فهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وكُلُوا واشربُوا حتَّى يتبيَّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ﴾ [3].

إذن فقد كان الصحابة يتفاوتون في فهم القرآن تبعاً لما يأتي:

١ ـ يتفاوتون تبعاً لمواهبهم.
٢ ـ يتفاوتون تبعاً لاطلاعهم على لغتهم وأدبها ولهجاتها.
٣ ـ يتفاوتون تبعاً لمعرفتهم أسباب النزول.

وهكذا فإن كثيراً من مواضع القرآن كانت تثير بعض الاسئلة عند بعض الصحابة فيتوجهون بها إلى الرسول ﷺ في حياته. وكان يسأل بعضهم بعضاً عن معاني المفردات الغامضة والآيات بعد وفاته صلّى اللّه عليه وسلّم.

---

(١) سورة عبس: ٣١ وهذا الخبر مروي عن أبي بكر أيضاً وانظر «تفسير ابن كثير» ٥/١ و «فتح الباري» ١٣/٢٧٠ ـ ٢٧٢ وانظر «الاتقان» ١١٣/١. والأب: المرعى المتهيء للرعي والجزّ.

(٢) «الاتقان» ١١٣/١ وانظر كلامنا على التفسير اللغوي. وانظر «البرهان» للزركشي ١٦٢/٢ و«تأويل مختلف الحديث» ص ٢٠ و«الباعث على الخلاص» ١٤٩.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧ وانظر الخبر في «صحيح البخاري» ٢٢/٦. أقول: وفهمُ عديٍّ رضي الله عنه غير صحيح: وقد نبهه رسول الله ﷺ الى الحق في الموضوع.

الفصل الثاني

التفسير في عهد الصحابة

كانت مادة التفسير في عهد الصحابة قائمة على ما يأتي:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن: وسنتحدث عن ذلك مفصلاً عند كلامنا على التفسير بالمأثور.

٢ ـ ما كان يحفظه الصحابة من تفسيرات النبي ﷺ: وقد نقلت لنا كتب السنة ما كان الصحابة يحفظونه من تفسير رسول الله ﷺ لبعض الآيات.

أما كمية ما فسره النبي ﷺ وتناقلته الصحابة فمختلف بها عند العلماء، فمنهم من يذهب إلى أنه ﷺ فسر القرآن كله، ومنهم من يذهب إلى أن الذي فسره قليل جداً، والحق في الوسط فليس ما فسره النبي ﷺ قليلاً، فهذه أبواب التفسير في كتب السنة حافلة، كما أنه لم يستوعب القرآن كله.

٣ ـ ما كانوا يستنبطونه من الآيات: وكان يعتمد ذلك على قوة فهمهم وسعة إدراكهم، وعلى معرفتهم بأوضاع اللغة وأسرارها، وأحوال الناس وعاداتهم في جزيرة العرب.

٤ ـ ما كانوا يسمعونه من أنباء أهل الكتاب الذين دخلوا في الاسلام

وحسن إسلامهم، وهذا المصدر تجده أكثر ما تجده في قصص الأنبياء، وهو مصدر هين يسير.

* * *

ومن المفيد أن نذكر أشهر الصحابة في التفسير:
أشهرهم عشرة هم:

١ ـ عبد الله بن عباس	٦ ـ عمر بن الخطاب
٢ ـ عبد الله بن مسعود	٧ ـ عثمان بن عفان
٣ ـ علي بن أبي طالب	٨ ـ زيد بن ثابت
٤ ـ أبي بن كعب	٩ ـ أبو موسى الأشعري
٥ ـ أبو بكر الصّديق	١٠ ـ عبد الله بن الزبير

وأهم هؤلاء في التفسير الاربعة الاوائل، وقد رتبتهم حسب أهميتهم في التفسير وكثرة ممارستهم له، فأوسع الصحابة اشتغالاً بالتفسير هو عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

ابن عباس[1]:

هو عبد الله بن عباس الذي كان يلقب بحبر الأمة، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، وغزا في افريقية، وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ، وكان من العلماء الكبار في التفسير، وكان ذلك ببركة دعاء الرسول ﷺ حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[2]، وبنشأته في بيت النبوة، وملازمته

---

(١) أنظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ٣/٣٣١ و«وفيات الأعيان» ٣/٦٢ و«البداية والنهاية» ٨/٢٩٥ و«الإصابة» ٢/٣٣٠ و«تهذيب التهذيب» ٥/٢٧٦ و«أعلام الموقعين» ١/١٨ وما بعدها. و«تهذيب الأسماء واللغات» ١/٢٧٤.

(٢) أورده البخاري في «صحيحه» ١/٢٢ عن ابن عبّاس قال: ضمّني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب»، وأخرجه البخاريّ أيضاً بلفظ: «اللهم فقهه في الدين» =

الصحابة، وبمعرفته للعربية وآدابها والوقوف على اسرارها، وبسبب جمعه عدداً من المزايا التي قل ان تجتمع في واحد من الذكاء النادر، والذهن الجوال، والقريحة الوقادة، والرأي الصائب، والدين المتين، والايمان الراسخ. وقد أثنى عليه ابن مسعود وكان يقول: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»[1].

وقد كثرت الروايات عن ابن عباس كثرة كبيرة.

وهناك طرق عديدة نقلت عن ابن عباس، وهي متفاوتة في القوة، وقد ذكر بعضها السيوطي في «الاتقان» وسأقتصر على ذكر ثلاث طرق إحداها واهية جداً.

* أجود الطرق هي طريق معاوية بن صالح[2] عن علي بن ابي طلحة[3] عن ابن عباس. وابن أبي طلحة يروي عن مجاهد عن ابن عباس

= ٣٤/١، وأخرجه مسلم ١٩٢٧/٤ بلفظ «اللهم فقهه...»، والخطيب في «الكفاية» ٣٨٤ وانظر ابن ماجه ٥٨/١ والترمذي ٣٥١/٤. وذكر ابن حجر في «فتح الباري» ١٧٠/١ أنَّ هذا الحديث أخرجه أحمد وابن حبّان والطبراني وابن سعد والبغوي في «معجم الصحابة»، وأورده ابن حجر أيضاً في «الإصابة» ٣٢٢/٢.

(١) أخرجه أبو شيبة زهير بن حرب في «كتاب العلم» ص ١٢٠ رقم الحديث ٤٨. وقال الشيخ ناصر الالباني في تعليقه عليه: (والسند اليه صحيح على شرط الشيخين). وأخرجه ابن كثير في مقدّمة «تفسيره» ٤/١ وقال: (فهذا إسناد صحيح الى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة ٣٢ وعمر بعده عبد الله بن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود.) وقد نقل هذا الكلام بحروفه الزركشي في «البرهان» ٨/١ وهو تلميذ ابن كثير ولم يعزه لأحد، وأخرجه أيضاً ابن حجر في «الإصابة» ٣٢٤/٢.

(٢) هو معاوية بن صالح بن حُدَيْر الحضرمي الحمصي، أحد الأعلام، وقاضي الأندلس. مات سنة ١٥٨ هـ أخرج له مسلم والأربعة.

(٣) روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس مرسلاً؛ لأنه لم يسمع منه. أصله من الجزيرة، وانتقل إلى حمص. قال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ٣٤٠/٧: [ونقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها، ولكنه =

وهذه الطريق اعتمد رجالها مسلم وأحمد وأصحاب السنن.

* وهناك طريق أخرى صحيحة وهي: قيس بن مسلم الكوفي[1]، عن عطاء بن السائب[2]، عن سعيد بن جبير[3]، عن ابن عباس. وهذه الطريق يعتمدها الحاكم في «مستدركه» وذكر أنها صحيحة على شرط الشيخين.

* أما الطريق الواهية الضعيفة فهي:

محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح[4]، عن ابن عباس، وممن يروي عن الكلبي محمد بن مروان السدي الصغير.

قال السيوطي: فان انضم الى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب[5].

أما تفسير ابن عباس المطبوع بعنوان «تنوير المقباس من تفسير ابن

= لا يسميه، ويقول: (قال ابن عباس) أو [يذكر عن ابن عباس] وأخرج له مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

(١) هو قيس بن مسلم الكوفي. موثق. مات سنة ١٢٠ هـ وأخرج له البخاري ومسلم والأربعة.

(٢) هو أحد الأئمة كان يختم كل ليلة. وأخرج له البخاري حديثاً واحداً متابعة في ذكر الحوض، وأخرج له الأربعة وقد اختلط في آخر عمره. مات سنة ١٣٦ وانظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» ٢٠٣/٧.

(٣) هو سعيد بن جبير وانظر ترجمته في مبحث التفسير في عهد التابعين.

(٤) محمد بن السائب الكلبي كذاب ساقط سبئيٌّ وقد نقل سفيان الثوري عنه انه قال: ما حدثت عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب فلا تروه. قال السيوطي في «الدر المنثور» ٤٢٣/٦: [والكلبي اتهموه بالكذب. وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: كل شيء حدثتكم به عن أبي صالح كذب] مات سنة ١٤٦. وأما أبو صالح المعروف بباذان أو باذام فأكثر علماء الرجال يطعن فيه ومن اعتدل قال: ليس به بأس واذا روى عنه الكلبي فليس بشيء. وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس. أنظر «التاريخ الكبير» للبخاري ١٤٤/٢ و«الميزان» ٢٩٦/١ و«المجروحين» لابن حبان ١٨٥/١.

(٥) «الاتقان» ١٨٩/٢.

عباس»[1] والذي جمعه الفيروز ابادي صاحب «القاموس» فإن روايته كلها تدور حول الشخص الذي ذكرناه قبل قليل وهو: محمد بن مروان السدي الصغير، ومن أجل ذلك فلا يطمأن بحال من الأحوال إلى ما انفرد به هذا الكتاب.

* * *

وشأن عبد الله بن مسعود[2] وعلي بن أبي طالب وابي بن كعب شأن كبير في التفسير ولا نستطيع أن نفصل القول في ذلك، فنكتفي بما أوردناه عن ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً.

وليس هؤلاء الصحابة المذكورون هم الذين اشتغلوا بالتفسير فقط، بل إن عدداً كبيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يفسرون في بعض الأحيان، ولكن هؤلاء الذين نوهنا بهم هم المكثرون. وقد انتشروا في الآفاق.

* * *

قيمة تفسير الصحابة[3]:

ننظر في التفسير المنقول عن الصحابة:

١ ـ فان كان مرفوعاً الى النبي ﷺ فهو حديث، له حكم الحديث أي يكون حجة ان صح سنده.

٢ ـ وان لم يكن مرفوعاً ننظر فيه فان كان متعلقاً بأسباب النزول أو

---

(١) طبع في مصر في المطبعة الازهرية سنة ١٣١٦ هـ وبهامشه «أسباب النزول» للسيوطي و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم وقد طبع طبعات أخرى أنظر «معجم المطبوعات» ١٥٨/١.

(٢) تتضح منزلة ابن مسعود في التفسير من قوله الذي مرَّ معنا في مبحث المكي والمدني.

(٣) وسنذكر هذا التفسير مرة أخرى في التفسير بالمأثور.

بما لا يكون من قبيل الرأي والاجتهاد أعطي حكم المرفوع وكان حجة إن صح سنده.

٣ ـ أما اذا كان من قبيل الاجتهاد والاستنباط أو ليس متعلقاً بأسباب النزول كان موقوفاً على الصحابي. وقد اختلف العلماء بالنسبة إلى الموقوف هذا: فمنهم من يقول: إنه رأي لا يلزم، ومنهم من يقول: إنه رأي يلزم.

قال الزركشي في «البرهان»[١]:

ينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان. فلا شك في اعتماده، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه.

وجاء في مقدمة «تفسير ابن كثير»[٢]:

«اذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعنا في ذلك الى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم».

وإن اختلفوا اخترنا من أقوالهم ما يكون أكثر انسجاماً مع السياق، وإن أجمعوا على رأي لزمنا الأخذ به.

* * *

ويتحصل من ذلك ان التفسير المروي عن الصحابي إن كان متعلقاً بأسباب النزول او بما لا يمكن ان يكون من قبيل الرأي والاجتهاد كان

---

(١) «البرهان» ٢/١٧٢.

(٢) «تفسير ابن كثير» ١/٣.

ملزماً، وكذلك إن كان تفسيراً يعتمد على اللغة التي هم أدرى الناس بها فهو ملزم أيضاً.

أما الشيء الذي ليس داخلاً فيما ذكرناه فهو بشكل عام غير ملزم. وينظر الى كل رأي على حدة.

* * *

الفصل الثالث

التفسير في عهد التابعين

جاء التابعون فنقلوا روايات التفسير عن الصحابة، وزادوا فيها ما استنبطوه بأنفسهم، وما زال التفسير يتضخم في عهدهم حتى اجتمع منه الشيء الكثير.

ولكن هذه الأقوال في التفسير لم تكن مجموعة ولا مرتبة بشكل منظم وفق ترتيب المصحف، بل كانت تروى منثورة تفسيراً لآيات متفرقة بين روايات لا علاقة لها بالتفسير، أي إن التفسير كان مختلطاً بالحديث غير مميز عنه.

وكان التابعون من أهل كل قطر يعنون برواية ما سمعوه وما ورد من التفسير عن الصحابي الذي يقيم في بلدهم.

* فاختص المكيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن عباس. وأشهر المكيين الذين قاموا بذلك مجاهد [١] وعكرمة [٢] وسعيد بن جبير [٣].

---

(١) هو مجاهد بن جبر المكي، المخزومي بالولاء، ابو الحجاج، ولد سنة ٢١ هـ شيخ القراء والمفسرين، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وكان من أئمة الحديث والفقه وكان ثقة عابداً مجمعاً على فضله، توفي سنة ١٠٤ هـ. هذا وقد حقق عبد الرحمن الطاهر السورتي كتاباً مخطوطاً جمعه جامع بعنوان «تفسير مجاهد» وطبع في قطر سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

(٢) هو عكرمة مولى ابن عباس، أبو عبد الله المدني البربري، ولد سنة ٢٥ هـ أثنى عليه ابن عباس فقال: ما حدثكم عكرمة عني فصدقوه فانه لم يكذب علي، توفي سنة ١٠٥ هـ.

(٣) هو سعيد بن جبير، الأسدي بالولاء، تابعي من كبار العلماء، أخذ عن عبد الله بن =

* واختص المدنيون برواية ما ورد من التفسير عن أبي بن كعب[1].

وأشهر المدنيين الذين قاموا بذلك: أبو العالية[2]، وزيد بن أسلم[3].

* وعني التابعون الكوفيون برواية ما ورد من التقسير عن ابن مسعود.

وأشهر الكوفيين الذين قاموا بذلك: علقمة بن قيس[4] وابراهيم النخعي[5] والشعبي[6].

وهذه المدارس الثلاث أهم مدارس التفسير عند التابعين.

* * *

= عباس، وقتله الحجاج بواسط سنة ٩٥ هـ. وقيل: إن قتله كان آخر سنة ٩٤ هـ وانظر «تهذيب التهذيب» ٤/١١ - ١٤.

(١) هو الصحابي الجليل أبي بن كعب بن قيس الانصاري الخزرجي، سيد القراء، شهد بدراً والمشاهد كلها، وكان من كتبة النبي ﷺ وكان من أصحاب الفتيا، يسأله عمر عن النوازل ويرجع اليه في المعضلات، توفي بالمدينة سنة ٣١ هـ.

(٢) هو رُفَيْع بن مهران، ابو العالية، البصري الفقيه المقرىء، رأى أبا بكر، وقرأ القرآن على أُبيّ وغيره، وسمع من عمر وابن مسعود وعلي وعائشة. وروى عنه قتادة وأبو العلاء، كان ابن عباس يرفعه على سريره وقريش اسفل منه يقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الاسرة. توفي سنة ٩٣ هـ. وانظر «الفقيه والمتفقه» ١/٣١ و«تهذيب التهذيب» ٣/٢٨٤ و«ابن الجزري» ١/٢٨٤ و«معرفة القراء» للذهبي ١/٤٩ و«اللباب» ٢/٤٦ و«طبقات المفسرين» للداودي ١/١٧٢ و«الحلية» ٢/٢١٧ و«الخلاصة».

(٣) هو زيد بن أسلم العدوي بالولاء المدني الفقيه المفسر، ذكروا انه ترك كتاباً في التفسير رواه ابنه عبد الرحمن. توفي سنة ١٣٦ هـ.

(٤) هو علقمةبن قيس، أبو شبيل، ولد في حياة النبي ﷺ، واشتهر بالقراءات، وكان قوي الذاكرة. قال: ما حفظت وأنا شاب فكأنما أقرؤه من ورقة. كان فقيه العراق، وهو من اهل الكوفة، توفي سنة ٦٤ هـ على الارجح.

(٥) هو ابراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، فقيه العراق، روى عن بعض الصحابة. كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. مات سنة ٩٥ هـ.

(٦) هو عامر بن شراحبيل ابو عمرو الهمداني الكوفي، من أكابر التابعين، ولد في خلافة عمر، سمع من ابن عمر، وولي قضاء الكوفة. كان جواداً سريع الحفظ، جريئاً في الحق توفي سنة ١٠٣ هـ.

قيمة تفسير التابعين:

اختلف العلماء في الأخذ بأقوال التابعين في التفسير، فمنهم من ذهب إلى الأخذ بأقوالهم. ومنهم من لم ير ذلك.

يروى عن أبي حنيفة أنه قال: (ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال).

وهذا القول يدل على أننا غير ملزمين بأخذ أقوال التابعين فهم رجال ونحن رجال ـ كما يقول ابو حنيفة ـ وهذا القول هو الصواب.

أما القول الذي يلزم بالأخذ بما ورد عن التابعين فهو موضع نظر.. نعم اذا اجمع التابعون على رأي فعندئذ يتوجب الأخذ به لأن إجماعهم يدل على وجود نص ملزم والله أعلم.

* * *

ملاحظة:

يبدو في كثير من الروايات في المسألة الواحدة عن الصحابة أو التابعين أو عن صحابي واحد اختلاف أو تعارض.

ولكن التعمق في هذه الأقوال يقنع بأنها غير متناقضة ولا متعارضة وأنها تعود الى أصل واحد، وبينها عموم وخصوص، وكثيراً ما بيَّن ابن جرير في تفسيره انها غير متعارضة.

وقد نبه على مثل هذا الاختلاف الموهوم ابن تيمية في رسالته في أصول التفسير [1] ونقله عنه الشيخ طاهر الجزائري بتلخيص جيد [2] فقال:

---

(١) « مقدمة في أصول التفسير » ص ٣٨.

(٢) « توجيه النظر » ص ٢.

(الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد...) وقال ابن كثير: (يقع في عباراتهم -أي التابعين- تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي)[1].

أما إذا لم نستطع التوفيق بينها، فينظر في أسانيدها، فإن وجدت بدرجة من الصحة متقاربة نظر فيها وأخذ ما يكون أقرب لنص الآية والله أعلم.

* * *

(١) «تفسير ابن كثير» ١/٥.

الفصل الرابع

تاريخ التفسير فيما بعد عهد التابعين

هذا الفصل يتناول موضوع تاريخ التفسير خلال اثني عشر قرناً، أي منذ منتصف القرن الثاني الهجري حتى العصر الحاضر، وليس ذلك مما يتسع له وقت الدراسة ولا منهاجها، ومن أجل ذلك، فسنقتصر على ذكر خطوط عريضة في غاية الايجاز.

بعد عصر التابعين قام تابعو التابعين بجمع أقوال الصحابة والتابعين في التفسير التي وصلت اليهم، وغالباً ما كان أبناء القطر يجمعون أقوال من سكن قطرهم من الصحابة والتابعين.

ووجد أناس كانوا يرحلون الى الأقطار المختلفة ليجمعوا ما قيل في التفسير على انه باب من أبواب الحديث، لأن هؤلاء الائمة كانوا علماء في الحديث، ومن الواضح أن الحديث كان يجمع العلوم الاسلامية كلها، وكان التفسير من أهم أبوابه، ويشبه الاستاذ أحمد أمين الحديث من حيث جمعه للعلوم بالفلسفة عند الاقوام الأخرى فيقول:

(وهكذا فمنزلة الحديث بالنسبة للعلوم الدينية كمنزلة الفلسفة للعلوم العقلية كانت الفلسفة شاملة لكل فروع البحث العقلي، ثم أخذ ينفصل عنها علم النفس وعلم الطبيعة وعلم الاجتماع)[1].

---

(١) «ضحى الاسلام» ١٣٨/٢.

* ثم كانت بعد ذلك الخطوة الأخيرة وهي انفصال التفسير عن الحديث، واعتباره علماً قائماً بنفسه، ووضعت التفاسير المستقلة لكل آيات القرآن مرتبة حسب ترتيب المصحف.

* * *

* ثم تأثر التفسير باتجاهات متعددة خلال العصور المختلفة، وسنخص هذه الاتجاهات بباب طويل هو الباب الثالث، وسيكون ذلك بمثابة عرض تاريخي للتأليف في التفسير. ولا بد من أن يتأثر المفسر بالسمات العامة لعصره، فالكتب التي ألفت في القرون الأولى حتى القرن الخامس تغلب عليها الأصالة، بينما كتب المتأخرين يغلب عليها الجمع.

* * *

أما الكتاب الاول في مجال التفسير فهذا ما يزال مجال بحث ودراسة والشيء المؤكد أن القرن الأول ألفت فيه بعض كتب التفسير، ولكننا لا نستطيع الجزم في الاولية في هذا الموضوع، وقد وصل الينا نبأ تأليف تفسير في وقت مبكر، فقد قرأنا في كتب الرجال والتراجم[1] أن عبدالملك ابن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ طلب من سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤ هـ أو سنة ٩٥ هـ أن يكتب له تفسيراً للقرآن وأن سعيداً هذا قد استجاب وكتب تفسيراً، وقد وجده عطاء بن دينار المتوفى سنة ١٢٦ هـ.

وبناء على هذا الخبر فإننا نستطيع أن نقرر ان كتاباً في تفسير القرآن كان موجوداً قبل سنة ٨٦ هـ ولا يبعد أن يكون هذا الكتاب هو أول كتاب في التفسير، والله أعلم.

* * *

أما القرن الثاني فيبدو انه كان حافلاً بكتب التفسير:

---

(١) «الجرح والتعديل» لابن ابي حاتم ٣/٣٣٢ و«تهذيب التهذيب» ٧/١٩٨.

فابن خلكان[1] يذكر ان عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ هـ كتب تفسيراً للقرآن قدمه للحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ. وأخبار الكتب المؤلفة في هذا القرن مستفيضة.

ولعل من أقدم ما وصل إلينا من كتب التفسير كتاب «معاني القرآن» للفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ. وسنتحدث عنه بشيء من التفصيل فيما بعد، وقد قوبل عمله باستحسان كبير لا سيما من الكوفيين، فقد نقل ابن النديم في «الفهرست»[2] كلمة عن ثعلب يقول فيها:

(كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بكير من أصحابه وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل[3]. فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع اليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أمل عليكم كتاباً في القرآن وجعل لهم يوماً. فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد، رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت اليه الفراء فقال له:

اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفي الكتاب كله. فقرأ الرجل، ويفسر الفراء. فقال ابو العباس ثعلب: لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه).

ويبدو ان كلمة ثعلب إنما تعني الثناء على صنيع الفراء، ولا تعني البدء بكتابة التفسير[4]. يريد أن يقول: لم يسبقه بهذه الاجادة أحد. وتتمة الجملة تؤكد ذلك وهي (ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه).

---

(١) «وفيات الاعيان» ٤٨٦/١ طبع بولاق.

(٢) «الفهرست» ص ١٠٥.

(٣) هو وزير المأمون، وأحد كبار القادة، وهو والد بوران زوجة المأمون، سنة ٢٣٦هـ.

(٤) وقد أخطأ أحمد أمين عندما مال الى هذا الرأي (انظر «ضحى الاسلام» ١٤١/٢).

اذن فقد كانت هناك مؤلفات في التفسير قبل كتاب الفراء، ولكن لم يصل إلينا إلا أنباؤها [1].

* * *

وما زالت كتب التفسير تتوالى، يستفيد المتأخر من الذين سبقوه، ويأتي بجديد في فهم كتاب الله، وتدبر معانيه، حتى جاء ابن جرير الطبري، ووضع تفسيره الذي ضم كثيراً مما في الكتب التي ألفت في التفسير قبله على غالب الظن.

* * *

وهكذا يتبين لنا أن التفسير قدكتب في وقت مبكر، ثم عندما ازدهر التدوين في القرنين الثاني والثالث كانت حركة نشيطة للتأليف في التفسير، وقد وصل إلينا كثير من هذه الآثار.

ودخلت في التفسير شوائب غريبة عنه من الأحاديث الموضوعة، والاسرائيليات.

وكانت على مر العصور غزارة في مؤلفات التفسير، وتنوع في مناهج المفسرين، تبعاً للتنوع في اختصاص كل منهم. وقد حاول كل صاحب فن أن يجعل من تفسير القرآن مجالاً لإظهار براعته في فنه، وأضحى التفسير إطاراً يتبارى فيه المختصون في الشؤون العلمية المختلفة ليصبوا فيه المعلومات التي تتعلق باختصاصهم، فالنحوي يكتب في التفسير فإذا تفسيره كتاب نحو، والفيلسوف يكتب في التفسير فإذا تفسيره كتاب في علم الكلام، والفقيه يكتب في التفسير فيخرج تفسيره كتاباً في الفقه، والبلاغي

(١) نشرت مجلة أضواء الشريعة في العدد الخامس أنَّ كتاب تفسير القرآن لسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ طبع بتحقيق السيد امتياز علي عرشي في رامبور بالهند في مجلد واحد يضمُّ ما وجد من أصول الكتاب من أول القرآن حتى سورة الطور. وفيه فهارس.

يكتب في التفسير فيضحى تفسيره مرجعاً في البلاغة، والمحدث يكتب في التفسير فيكون كتاب تفسيره كتاب حديث... وهكذا.. قال السيوطي: (ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم، فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه، فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته، كالزجاج والواحدي في «البسيط» وأبي حيان في «البحر» و«النهر»؛ والاخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها، والاخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي؛ والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية والجواب من أدلة المخالفين، كالقرطبي، وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الدين قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة..)[1] وما زال كل ذي موهبة وعلم يسهم في التفسير ويكشف عن شيء جديد من أسرار هذا الكتاب الكريم التي لا تنتهي.

(١) «الاتقان» ٢/١٩٠.

الباب الثالث

اتجاهات التفسير

ظهرت اتجاهات متعددة في التفسير. وغرضنا في هذا الباب بحث أهم هذه الاتجاهات ودراسة خصائصها. وسنخصُّ بالذكر والدراسة في كل اتجاه كتاباً هاماً من كتب التفسير يمثل هذا الاتجاه.

وقد أوليت الاتجاه اللغوي شيئاً من العناية مراعاة للمختصين باللغة العربية الذين كتبت لهم بحوث هذا الكتاب.

أما هذه الاتجاهات التي سنفرد كل واحد منها بفصل في هذا الباب فهي الاتجاه اللغوي. والتفسير بالأثر، والتفسير بالرأي، والتفسير العلمي، والتفسير الاصلاحي، وسنشير بعد ذلك في فصل واحد إلى اتجاهات اخرى مثل التفسير الموضوعي والفقهي والاشاري. وليس من شك في أن أهم هذه المدارس التفسيرية مدرستان قامتا منذ وقت مبكر هما مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرأي.

الفصل الأول

الإتجاه اللغوي في تفسير القرآن

إن هذا الاتجاه من أقدم الاتجاهات التي وجدت في التفسير، كما سنرى من استعراض كتب غريب القرآن وإعرابه. ولتيسير بحثه سنقسمه ثلاثة أقسام، وان كانت هذه الأقسام متداخلة أحيانا:

١ ـ القسم الأول: ما يتعلق بمفردات اللغة: وقد ترك لنا العلماء المتقدمون طائفة من المؤلفات عرفت بكتب غريب القرآن.

٢ ـ القسم الثاني: ما يتعلق بالنحو والقضايا الإعرابية.

٣ ـ القسم الثالث: ما يتعلق بالبلاغة والاساليب البيانية.

ولعل هذا الاتجاه بأقسامه هذه من أهم الاتجاهات التي تعني دارسي العربية في دراستهم للتفسير لاتصالها بدراستهم الاختصاصية.

١ ـ القسم المتعلق بمفردات اللغة أو (كتب غريب القرآن):

في القرآن كلمات غريبة، وهي اما أن يكون معناها غامضاً، لا يفهم إلا بعد بحث وتنقيب وجهد، واما أن يكون معناها معروفاً لدى قوم دون غيرهم، لأنها مستعملة في لغتهم.

ويبدو أن وجود كلمات في القرآن لا يعرف بعض الناس معناها أمر قديم، ففي أخبار الصحابة ما يدل على ذلك، وقد ذكرنا في مبحث

التفسير في عهد النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب لم يعرف معنى كلمة (الأب).

قال السيوطي: (فهذه الصحابة وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفصحاء، ومن نزل القرآن عليهم بلغتهم، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا شيئاً، فاخرج أبو عبيد في «الفضائل» عن إبراهيم التيمي: أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى: (وفاكهة وأبا)[1] فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ واخرج عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر)[2].

والكتب التي عالجت إيضاح هذه المفردات دعيت بكتب غريب القرآن.

ويحسن أن نورد قول الخطابي الذي يشرح كلمة الغريب قال أبو سليمان الخطابي:

(الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل.

والغريب من الكلام يقال به على وجهين:

أحدهما: أن يراد به أنه بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. والآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها)[3].

والتأليف في غريب القرآن قديم. وأول من يعزى إليه كتاب في غريب

---

(١) سورة عبس: ٣١.

(٢) «الاتقان»: ١/١١٣ وانظر الفصل الأول المتعلق بالتفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) «كشف الظنون»: ٢/١٢٠٣.

القرآن هو الصحابي عبدالله بن عباس. وكانت هناك ـ كما يذكر بروكلمان ـ نسخة من كتابه في برلين قبل الحرب العالمية الثانية، وتدور شكوك عديدة حول صحة نسبته إلى ابن عباس.

ويرى الدكتور حسين نصار[1] ان هذا الكتاب كان يضم بعض الأقوال التي ادلى بها ابن عباس في تفسير الغريب من الفاظ القرآن، وانه لم يكن هو الذي دونها في كتاب، وإنما جمعها بعض رواة هذه الأقوال، ويحتج لرأيه هذا بأن أحداً من مترجمي ابن عباس لم ينسب إليه مثل هذا الكتاب.

وذكر السيوطي في «الاتقان» ما رآه صحيحاً عنه فقال:

(وأولى ما يرجع إليه في ذلك ما يثبت عن ابن عباس واصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالاسانيد الصحيحة الثابتة، وها أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس عن طريق ابن أبي طلحة خاصة فإنها من أصح الطرق عنه، وعليها اعتمد البخاري مرتباً على السور)[2] ولا يبعد أن يكون أحد العلماء استخرج هذه النقول ووضع لها عنواناً هو (غريب القرآن) لابن عباس.

وألف الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي كتاباً عنوانه: «معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاري» وأورد فيه ما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة خاصة، وطبعه سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م).

وتذكر المصادر ان من العلماء المتقدمين الذين ألفوا في هذا الموضوع أبان بن تغلب البكري المتوفى سنة ١٤١ هـ الذي دون كتاباً في غريب القرآن، وذكر ياقوت في «معجم الأدباء»[3] أن أبان كان يذكر في كتابه

---

(١) «المعجم العربي»: ١/٤٤.
(٢) «الاتقان» ١/١١٤.
(٣) «معجم الادباء» ١/١٠٨.

شواهد من الشعر، فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمد الأزدي، فجمع من كتاب أبان ومحمد بن السائب وأبي روق عطية بن الحارث فجعله كتاباً ذكر ما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه.

وسنذكر فيما يلي اسماء نفر من العلماء المتقدمين الذين ألفوا في غريب القرآن:

* منهم محمد بن السائب الكلبي الكوفي المتوفى سنة ١٤٦ هـ.
* ومنهم أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي البصري المتوفى سنة ١٧٤هـ أو ١٩٠هـ
* ومنهم علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٢ هـ.
* ومنهم يحيى بن المبارك اليزيدي المتوفى سنة ٢٠٢ هـ.
* ومنهم النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٣ هـ.
* ومنهم قطرب محمد بن المستنير المتوفى سنة ٢٠٦ هـ.
* ومنهم يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ.
* ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ.
* ومنهم الاخفش الأوسط سعيد بن مسعده المتوفى سنة ٢١٦هـ.
* ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ، وكتاب أبي عبيد صار هو القدوة في هذا الشأن.

وجاء بعد أبي عبيد محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وثعلب أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ وألف كل منهم كتاباً في «غريب القرآن» وقد فقدت معظم هذه الكتب وسلم لنا كتاب ابن قتيبة الذي سنخصه بشيء من الحديث فيما يأتي:

غريب القرآن لابن قتيبة:

وابن قتيبة هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. ولد في الكوفة سنة ٢١٣ هـ ثم سكن بغداد، وعدّه العلماء امام مدرسة بغداد النحوية، ترك

مؤلفات كثيرة قيمة، من أهمها «عيون الأخبار»، و«أدب الكاتب». توفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ وكتابه من أهم كتب الغريب.

ـ ذكر في المقدمة انه قصر بحثه على غريب القرآن (دون تأويل مشكله إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتاباً جامعاً كافياً بحمد الله).

ـ وأشار في هذه المقدمة إلى مراجعه وخطته بإزائها، وذلك في قوله: (وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين، وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذهبهم، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة، وأشبهها بقصة الآية، ونبذنا منكر التأويل ومنحول التفسير).

ـ ثم ذكر غرضه الذي امتثله في هذا الكتاب، ومنهجه في تأليفه فقال: (وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا أن نختصر ونكمل، وان نوضح ونجمل، وان لا نستشهد على اللفظ المبتذل، ولا نكثر الدلالة على الحرف المستعمل، وأن لا نحشو كتابنا بالنحو والحديث والأسانيد، فإنا لو فعلنا ذلك في نقل الحديث لاحتجنا إلى أن نأتي بتفسير السلف رحمة الله عليهم بعينه، ولو أتينا بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التي ألفها نقلة الحديث)[1] ثم يقرر أنه لو نقل أقوالهم واختار منها أصحها في نظره. وأقام الدلائل عليه لأسهب في القول، وأطال الكتاب، وباعده من بغية المتأدب.

ـ وأورد في المقدمة نبذة عن التأويل المنكر والتفسير المنحول.

ـ أما كتابه فثلاثة أقسام:

١ ـ ذكر في القسم الأول منها أسماء الله الحسنى، وتأويلها واشتقاقها، وقد استغرق هذا القسم من صفحة ٦ حتى صفحة ٢٠. وقد ذكر ستة

---

(١) مقدمة «غريب القرآن» ص ٣.

وعشرين لفظاً تتصل باسماء الله الحسنى من أمثال (الرحمن، الرحيم، السلام، القيوم...).

٢ ـ وذكر في القسم الثاني ألفاظاً كثر ترددها في القرآن الكريم، وفسرها، وقد استغرق هذا القسم من صفحة ٢١ حتى صفحة ٣٧، وقد ذكر أربعين لفظاً من أمثال (الجن، الناس، ابليس.. الأنفس).

٣ ـ والقسم الثالث هو الغريب في القرآن. وهو يشكل معظم الكتاب، ويستغرق من صفحة ٣٧ حتى ٥٤٤ وهي نهاية الكتاب.

وقد جعل الغريب أقساماً وفقا للسور مرتبة على ترتيبها في المصحف.

ـ ومن الملاحظ ان ابن قتيبة اعتمد على كتابين من كتب القرآن المؤلفة قبله وهما: (كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، وكتاب «معاني القرآن» للفراء) اعتمد عليهما أكبر اعتماد، حتى أنه في بعض المواطن كان ينقل لفظهما نفسه، ولم يكن مجرد ناقل لا شخصية له، بل انك لتحس بشخصيته واضحة، وقد ينتقد من نقل عنه.

ـ وقد كان لهذا الكتاب أثر في الذين ألفوا في التفسير والغريب من بعد.

ـ طبع هذا الكتاب أكثر من مرة. وطبع في مطبعة البابي الحلبي طبعة جيدة بتحقيق السيد أحمد صقر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٩٥٨ م. وعلى الكتاب تعليقات جيدة ووضع له فهارس نافعة. وهذه الطبعة هي التي اعتمدت عليها في هذه الالمامة.

* * *

غريب القرآن للسجستاني:

والسجستاني هو أبوبكر محمد بن عُزَيْز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ

١ ـ وكتابه غريب القرآن يسمى أيضاً «نزهة القلوب».

٢ ـ قال السيوطي في هذا الكتاب: (ومن اشهرها كتاب العزيزي، فقد أقام في تأليفه خمس عشرة سنة، يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري)[١] وذكر أبو البركات الأنباري: (أن السجستاني صنف كتابه في خمس عشرة سنة وكان يقرؤه على شيخه أبي بكر بن الأنباري فكان يصلح له فيه مواضع)[٢].

٣ ـ مقدمته موجزة جداً، وهي بعد الحمدلة: (وبعد فهذا تفسير غريب القرآن ألف على حروف المعجم، ليقرب تناوله، ويسهل حفظه على من أراده، وبالله التوفيق والعون).

٤ ـ رتبه على حروف المعجم، ولم يرجع الكلمة الى أصل مادتها، وإنما راعى نطقها مراعاة تامة، ولم يفصل بين الزائد والأصلي، فمثلاً كلمة (أثقال) في باب الهمزة لا في باب الثاء.

٥ ـ قسم كل حرف من الحروف إلى ثلاثة أبواب: فمثلاً حرف الباء نجد فيه الأبواب الثلاثة الآتية:

(باب الباء المفتوحة) (باب الباء المضمومة) (باب الباء المكسورة).

٦ ـ الكلمات في الباب لا يراعي فيها ترتيب الحروف بعد الحرف الأول، بل يراعي ورودها في المصحف وفي السور.

٧ ـ يستشهد المؤلف بأبيات من الشعر المحتج به.

٨ ـ يغلب على شرحه للألفاظ الغريبة الإيجاز، وقد يقتصر في شرحه على كلمة واحدة.

٩ ـ اعجب به الباحثون وأثنوا على مؤلفه وقرروا أنه أجاد، وقد شرح شواهده أبو العباس أحمد بن عبد الجليل التُدْميري[٣] المتوفى سنة ٥٥٥ هـ.

---

(١) «الاتقان» ١/١١٣ وانظر «بغية الوعاة» ص ٧٣.

(٢) «نزهة الألباء» ص ٣٨٦.

(٣) التدميري نسبة إلى تدمير بضم التاء، وهي بلدة في شرق قرطبة. انظر ترجمته في «الاعلام».

طبع هذا الكتاب أكثر من مرة: طبعه الأستاذ مصطفى عناني، وطبعه أيضاً محمد علي صبيح. ثم رأيت طبعة أصدرتها دار التراث في القاهرة بعنوان «تفسير غريب القرآن» ليس فيها مقدمة الطبع ولا اسم المحقق ولا تاريخ الطبع، وقد رتبت المفردات على سور القرآن حسب ترتيب المصحف. وقد يكون أقدم رجل على ترتيب الكتاب ترتيباً أقرب للتناول، ولكنَّ هذا العمل لا يجوز في كتب السابقين مع بقاء نسبتها إلى أصحابها.

* * *

المفردات في غريب القرآن:

ويمثل هذا الكتاب الذروة في التأليف في الغريب.

ومؤلفه هو أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصبهاني من رجال القرن الخامس والمتوفى سنة ٥٠٢ هـ كما رجح الزركلي في «الاعلام»[١] ترك مؤلفات عديدة منها «جامع التفاسير» و«حل متشابه القرآن» و«محاضرات الأدباء»[٢].

وكتابه من أهم كتب الغريب وأنفعها، وسنحاول التعريف به فيما يأتي:

ـ يبدو من مقدمته أن للمؤلف اشتغالا بالدراسات القرآنية، فقد ذكر فيها بعض رسائله عن القرآن.

ـ ذكر في المقدمة منهج كتابه فقال:

(وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى، فيه مفردات الفاظ القرآن على حروف التهجي، فنقدم ما أوله الألف، ثم الباء، على ترتيب حروف المعجم، معتبراً فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزائد، والإشارة

---

(١) أورد الزركلي في الهامش أقوالا عدة في وفاته ويبدو أن حياته يكتنفها غير قليل من الغموض فقد اختلف في اسمه أيضا. (أنظر «الاعلام» ٢/٢٧٩).

(٢) وقد طبع أكثر من مرة.

فيه إلى المناسبات التي بين الألفاظ، المستعارات منها والمشتقات، حسما يحتمل التوسع في هذا الكتاب)[1].

ـ أشار في المقدمة إلى أهمية معرفة مفردات القرآن لإدراك معاني الكتاب الكريم فقال:

(إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات القرآن.. لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن في بناء ما يريد أن يبنيه. وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع. فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم)[2].

ـ راعى في كتابه هذه المشتقات، وتعد من أبرز خصائص هذا الكتاب النفيس هذه المراعاة التي بدت بوضوح في الكتاب كله.

وقد يورد الاشتقاق الكبير أحياناً، فمثلاً في مادة (فكر) قال:

(قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها، طلباً للوصول إلى حقيقتها).

ـ راعى أيضاً دوران اللفظ في الآيات المختلفة، وهذه خاصة ممتازة، ذلك لأن للقرآن الكريم في استخدام ألفاظ اللغة العربية طريقة خاصة فتتبع المفردة في القرآن كله يساعد مساعدة تامة على فهم الكلمة فهماً سليماً صحيحاً[3].

---

(١) «المفردات» ص ٤ طبعة المطبعة الميمنية.

(٢) «المفردات» ص ٣ طبعة المطبعة الميمنية.

(٣) انظر «التفسير البياني» لبنت الشاطىء ١/١٤ و«دراسات في التفسير» لمصطفى زيد صفحة (ص).

التزم ايراد ما يؤخذ من اللفظ من مجاز وتشبيه.

لم يورد في أقواله التي يسوقها أسماء لغويين ولا مفسرين إلا نادراً، رغبة في الإيجاز.

ـ كتابه أشبه ما يكون بمعجم كامل للألفاظ القرآنية، وليس مقتصراً على الغريب فقط. فهو يتناول معظم مفردات القرآن لا تكاد تفوته كلمة.

ـ ومن أهم خصائص هذا الكتاب أنه يورد الفروق بين المعاني الدقيقة التي يظنها كثير من الناس سواء. فهو مثلاً يفرق بين الحمد والشكر والمدح[1]، فقد قرر أن الحمد لله تعالى يعني الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخص من المدح، وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الانسان باختياره، وفيما يكون في الانسان بالتسخير، فقد يمدح الانسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه. والحمد يكون في الثاني دون الأول. والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة. فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً. وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً[2].

ـ اهتم بالإتيان بشواهد من الحديث الشريف والشعر. اما استشهاده بالشعر فلبيان المعنى للكلمة، لا للدلالة على أن الكلمة عربية، فقد ذكر في مادة (فلح) مثلا أن الفلاح الدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز، وإياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضـ ـعف وقد يخدع الأريب

ـ طبع هذا الكتاب عدة طبعات في مصر: ففي سنة ١٣٢٤ هـ طبع بالمطبعة الميمنية على نفقة مصطفى البابي الحلبي، وطبع على هامش «النهاية» في المطبعة الخيرية للسيد عمر الخشاب، وأعيد طبعه مؤخرا بتحقيق الأستاذ محمد سيد كيلاني.

* * *

(١) انظر ذلك في مادة «حمد».

(٢) انظر تفريق ابن تيمية بين الكلمتين في «مجموع الفتاوى» ١١/١٣٣.

وفي ختام حديثنا عن القسم المتعلق بالمفردات نود أن نشير إلى « معجم ألفاظ القرآن » الذي أصدره مجمع اللغة العربية بمصر ويقع في مجلدين كبيرين عدد صفحات الأول منهما ٦٤١ وعدد صفحات الثاني ٩١٨ صفحة وقد ذكر ـ في التمهيد الذي صُدِّرَ به الجزءُ الأول ـ أنَّ هذا الكتاب كان نتيجة لاقتراح الدكتور محمد حسين هيكل وذلك في ٦ من شهر المحرم سنة ١٣٦٠ هـ (الموافق ١٩٤١/٢/٢ م) وقد عمل على إنجاز هذا المعجم عدد من أهل العلم بلغوا كما جاء في التمهيد تسعة عشر رجلاً.

فقد شُكِّلَت لجنة لتأليف هذا الكتاب، وما زالت تنمو هذه اللجنة حتى أصبحت في سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) مكونة من أعضاء المجمع:

الشيخ إبراهيم حمروش، والأستاذ إبراهيم مصطفى، والشيخ عبد الوهاب خلاّف، والأستاذ علي عبد الرازق، والدكتور محمد حسين هيكل، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد القادر المغربي (عند حضوره إلى مصر).

ومن قبل شارك في العمل بوضع المبادىء أو النماذج أو الإعداد أعضاء المجمع: هـ.أ.ر. جب، والشيخ أحمد إبراهيم، والأستاذ علي الجارم، والشيخ مصطفى عبد الرازق. وقسمت موادُّ القرآن الكريم على لجان فرعية، كل لجنة منها مكونة من عضو من أعضاء المجمع وأستاذ منتدب من غير أعضائه مساعداً لعضو المجمع. وكان الأساتذة المساعدون هم:

الدكتور سيد نوفل، والأستاذ عبد المنعم محمد خلاّف، والشيخ علي حسب الله، والشيخ محمد الزفزاف، والشيخ محمد علي النجار، والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، والشيخ محمد المدني.

والطريقة التي انتهى اليها المجمع للسير عليها بوضع المعجم:

أولاً: إذا كانت الكلمة القرآنية ترد في القرآن بمعنى واحد:

أ ـ تشرح الكلمة شرحاً لغوياً أولاً.

فإن كانت فعلاً مجرداً ذكر بابه ومصدره ومشتقاته إن كان لهذه المشتقات ورود في القرآن الكريم.

وإن كانت فعلاً مزيداً ذكر معناه، ثم ذكرت مشتقاته على النحو السابق.

وإن كانت اسماً اكتفي بمعناه.

وإن كانت مصدراً ذكر معناه وفعله.

ب ـ يبين أنَّ الكلمة وردت في القرآن الكريم في كذا موضعاً، وأنها جاءت في كل هذه المواضع بالمعنى الذي ذكر آنفاً.

ثانياً: إذا كانت للكلمة القرآنية معان لغوية مختلفة:

أ ـ ينصُّ على المعاني اللغوية كلها، ويبيّن نوع الفعل والمصدر، وتذكر المشتقات التي وردت من هذه المادَّة.

ب ـ يؤخذ أولاً أكثر المعاني دوَراناً في القرآن الكريم، وينصُّ على أنَّ الكلمة وردت بهذا المعنى في كذا وكذا موضعاً. ويذكر مثالان من الآيات مع اسم السورة ورقم الآية. ثم يكتفى بعد ذلك بما جاء من هذا المعنى بذكر السورة ورقم الآية.

ج ـ تذكر المعاني الأخرى معنىً بعد آخر.

ويذكر بعد كل معنى عدد الآيات التي جاءت فيها الكلمة بهذا المعنى.

ويكتفى بمثال، ثم تذكر السور وأرقام الآيات الأخرى.

ثالثاً: قد يسهل أحياناً ـ إذا كان للكلمة أكثر من معنى ـ أن يبدأ بالمعاني التي وردت في قليل من الآيات، ثم يذكر المعنى الذي ورد به كثير من الآيات، ويقال: ما عدا ذلك فهو بمعنى كذا في باقي الآيات.

رابعاً: إذا كان للكلمة معنى لغوي واحد ولكنها استعملت في القرآن الكريم بألوان مختلفة بسبب المجاز أو نحوه نُصَّ على المعنى اللغوي البحت،

وقيل: إنها تستعمل أو قد ترد بمعنى كذا، ثم تذكر الآيات وأرقامها على النحو السابق.

على ضوء هذه الخطة سارت اللجنة في وضع المعجم بعد أن رتبت ألفاظ القرآن حسب حروف الهجاء مسترشدة بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

هذا وقد اعتمدت على الطبعة الثانية لهذا الكتاب التي اصدرتها الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر في سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م).

* * *

٢ ـ القسم المتعلق بالنحو والقضايا الاعرابية:

كان التأليف في التفسير من زاوية النحو يساير التأليف في غريب القرآن الذي تقدم ذكره. ويبدو أن معظم العلماء الذين غلب عليهم الاشتغال بالنحو كانوا يضعون تفسيرا للقرآن الكريم، لأن هذا الكتاب الكريم مدار بحثهم، وعليه يعتمدون في تأييد القواعد، فلا بد لهم من فهم آياته، وتفسيرها، وعرض وجهات نظرهم الاختصاصية خلال ذلك.

ومن أشهر من كتب في ذلك الإمام النحوي الكبير الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد المتوفى سنة ٢٨٦ هـ، وثعلب أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ، ويحيى بن علي التبريزي المتوفى سنة ٥٠٨ هـ، وعبد الرحمن بن محمد أبو البركات الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وغيرهم.

ونستطيع أن نصنف الكتب التي درست القرآن من وجهة النظر النحوية في زمرتين:

١ ـ كتب فسرت القرآن أو المشكل منه، وعنيت بالنحو. وسندرس كتابين من هذه الزمرة هما «معاني القرآن» و«البحر المحيط».

٢ ـ كتب عرفت بكتب إعراب القرآن وهي كثيرة، عرض لطائفة جيدة منها صاحب « كشف الظنون »، والسيوطي في « الإتقان ». وسندرس بعضها بعد قليل:

١ ـ من أقدم الكتب التي وصلت إلينا من كتب الزمرة الأولى ـ أي كتب التفسير المهتمة بالنحو ـ كتاب « معاني القرآن » للفراء الذي سنتحدث عنه فيما يلي:

كتاب « معاني القرآن » للفراء:

يذكرنا هذا الكتاب بكتب المعاني التي نجدها في جوانب الثقافة الإسلامية، فهناك كتب المعاني في الأبيات الشهيرة مثل « كتاب المعاني » لابن قتيبة. وهناك كتب المعاني في مشكل الحديث مثل كتاب « معاني الآثار » للطحاوي. وهناك كتب المعاني في القرآن مثل كتابنا الذي نحن بصدد دراسته الآن.

قال ابن الصلاح:

(وحيث رأيت في كتب التفسير (قال أهل المعاني) فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج، والفراء، والأخفش، وابن الأنباري)[1].

إذن فهناك عدد كبير من العلماء الاعلام قد ألفوا في معاني القرآن ومن أبرزهم هؤلاء الذين ذكرهم ابن الصلاح.

وربما كانت كتب المعاني هي النواة الأولى في التفسير، والفرق بينها وبين كتب التفسير: ان كتب المعاني كانت تختار بعض الآيات لتجلو معناها. أما كتب التفسير فكانت تحاول ألا تترك شيئاً من القرآن دون أن تشرحه.

---

(١) « الاتقان » ١/١١٣.

أما أول من صنف في معاني القرآن فيذكر الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» أنه أبو عبيدة معمر بن المثنى، ثم قطرب بن المستنير[1]، وأول من صنف من الكوفيين الكسائي ثم الفراء. فجمع أبو عبيد من كتبهم وجاء فيها بالآثار واسانيدها وتفاسير الصحابة والتابعين والفقهاء[2].

الفراء: أما الفراء فهو أبو زكريا، يحيى بن زياد الفراء الديلمي، من موالي بني اسد. أخذ عن الكسائي، وكان إماما ثقة ذا حظوة عند المأمون، وقد عهد إليه بتعليم ابنيه النحو. واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية، وأمر أن تفرد له حجرة من الدار، ووكل بها خدماً للقيام بما يحتاج إليه، وعين له نفراً من الوراقين، يكتبون ما يمليه حتى صنف كتاب «الحدود» في سنتين، ثم خرج للناس، وأملى كتاب «المعاني» وقد تقدم ذكر سبب إملائه[3]، وهو ورود كتاب من أحد أصحابه، وهو عمر بن بكير، يطلب إليه كتابة تفسير للقرآن حتى يعتمده في الإجابة عندما يسأل[4]. توفي الفراء سنة ٢٠٧ هـ.

أما كتاب «معاني القرآن» فنستطيع تسجيل الملاحظات الآتية حوله:

١ ـ معاني القرآن هذا هو العنوان الشائع بين المشتغلين بالعلم، أما الفراء فقد ذكر العنوان في مقدمة كتابه كما يأتي:

«تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه».

---

(١) هو محمد بن المستنير. وقطرب لقبه.

(٢) «تاريخ بغداد». ٤٠٥/١٢ وأبو عبيد هو القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ.

(٣) انظر ص ٢١٤ وذلك عند كلامنا على تاريخ التفسير فيما بعد عهد التابعين.

(٤) «الفهرست» لابن النديم ص ١٠٥ وانظر «معجم الأدباء» ١٢/٢٠ وانظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» و «البداية والنهاية» ٢٦١/١٠ و «تهذيب التهذيب» ٢١٢/١١ و «غاية النهاية» ٣٧١/٢ و «نزهة الألباء» ٨١ و «بغية الوعاة» ٤١١ و «تاريخ بغداد» ١٤٩/١٤ و «شذرات الذهب» ١٩/٢ وانظر أيضاً في ترجمته فصلاً وافياً كتبه رمضان عبد التواب في مقدمته لكتاب الفراء «المذكر والمؤنث» الذي حققه ونشره سنة ١٩٧٥ وقد استقصى هناك ذكر كتبه.

وهذا العنوان بهذه الصيغة يلقي ضوءاً ساطعاً على واقع الكتاب، فالإعراب ـ ولاسيما المشكل ـ هو هم المؤلف الأول، ليس معنى هذا خلو الكتاب من شرح المعنى، بل إن تفسير المعنى مقصد سعى إليه المؤلف، كما يدل على ذلك العنوان، غير أنه لا يشكل حيزاً كبيراً إذا قيس بالإعراب والقضايا النحوية.

٢ ـ يدل الكتاب على الثقافة النحوية الواسعة، التي كان يتمتع بها المؤلف كما يدل على معرفته الممتازة بلهجات الأعراب ولغاتهم.

٣ ـ يدل الكتاب على ان مؤلفه من القراء العارفين المتقنين.

٤ ـ يدل الكتاب على المنهج الذي كانت تنتهجه مدرسة الكوفة النحوية في بحثها لقضايا النحو وفي التأليف. ولا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو المرجع الكبير الذي ضم آراء هذه المدرسة بقلم أحد أئمتها.

ونستطيع الآن بعد أن نشر وطبع أن نتعرف على آراء الكوفيين من خلاله، وكنا قبل ظهوره نتعرف على آرائهم من خلال كتب خصومهم البصريين. وقد أحدث نشره تغييراً كبيراً في نظرتنا للنحو الكوفي.

٥ ـ قد يُعنى المؤلف بالنواحي الاملائية. والمثل على ذلك بحثه في كتابه (باسم ربك) و (بسم الله) فقرر أنّ كلمة (اسم) إذا جاءت مع لفظة الرب أثبتت الفها، وإذا جاءت مع لفظ الجلالة حذفت الألف ويعلل كتابتها في موضع وحذفها في الموضع الآخر [١].

٦ ـ يحظى الاعراب بالقدر الأوفى من العناية عند المؤلف، وهو لا يكتفي بتقرير الاعراب على الوجه الذي وردت عليه الآية، وإنما يجاوز ذلك إلى توجيه أقوال الاعراب البداة وتخريجها وفقاً لقواعد العربية، بل انه يذكر أحياناً قراءات القراء واجماعهم، ولكنه جرياً وراء الرغبة في

---

(١) «معاني القرآن» ٢/١ و ٣٣٧.

الاعراب يقلب الآية على الوجوه التي يحتملها الاعراب[1].

٧ ـ يأتي المؤلف بالنكت البيانية فيشرحها مستدلا عليها بما روي عن العرب من الاشعار، (انظر تفسيره لقوله تعالى: فما ربحت تجارتهم)[2].

طبع هذا الكتاب في دار الكتب المصرية لأول مرة، وقد تم الجزء الأول منه سنة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م وقد حققه الاستاذان أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار وقد ردا الآيات التي استشهد بها المؤلف الى مواضعها في المصحف كما نسبا الشواهد إلى أصحابها، وشرحا المصطلحات النحوية الخاصة بمدرسة الكوفة، ووضعا فهرساً تفصيلياً نافعاً.

وطبع الجزء الثاني بتحقيق محمد علي النجار سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) والجزء الثالث بتحقيق عبد الفتاح شلبي وعلي النجدي سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م).

وتم الكتاب طباعة وتحقيقاً، وهو من أنفس كتب التفسير والنحو.

* * *

تفسير «البحر المحيط» لأبي حيان:

أبو حيان هو أثير الدين، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني. ولد في الأندلس سنة ٦٥٤ هـ، وتلقى العلوم العربية عن أكابر رجالها في الأندلس وافريقية. وكان يكثر نظم الأشعار والموشحات[3]. ثم قدم الاسكندرية، فقرأ القراءات، وكان يعظم سيبويه جداً، وكان بينه وبين ابن تيمية ود، وقد مدحه بقصيدة ثم انحرف عنه ونال منه، وقيل: إن سبب ذلك انه بحث معه في العربية، فخالف ابن تيمية سيبويه، وذكر ان له أخطاء، فكان ذلك سبب انحراف ابي حيان عنه.

---

(١) «معاني القرآن» ١/١٧.

(٢) «معاني القرآن» ١/١٤.

(٣) نشرت خديجة الحديثي وأحمد مطلوب ديوانه سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م ببغداد.

كان ثبتاً فيما ينقله، عارفاً باللغة، أما النحو والتصريف فهو الامام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يذكر في أقطار الأرض فيهما غيره. كان ظاهرياً ثم تحول إلى مذهب الشافعي، وكان من كبار العلماء بالتفسير والحديث والتراجم واللغات [1]. وتوفي سنة ٧٤٥ هـ.

أما تفسيره «البحر المحيط» فسنورد عنه الملاحظات الآتية:

١ ـ هذا التفسير كبير يقع في ٨ مجلدات كبار.

٢ ـ يكثر أبو حيان فيه من التعرض للمسائل النحوية ويتوسع في ذكر الخلاف بين النحويين وفي إعراب الكلمات.

٣ ـ يتكلم عن المعاني اللغوية للمفردات أولاً. وإذا كان للكلمة معنيان أو معان شرح ذلك في أول موضع ترد فيه الكلمة.

٤ ـ يذكر القراءات الواردة في الآية، ويوجهها نحوياً، ويذكر الشاذ والمستعمل.

٥ ـ يعنى بالناحية البلاغية بياناً وبديعاً.

٦ ـ يحيل على المصادر التي نقل منها قضايا الإعراب والاحكام الفقهية. وقد أحصى في مقدمته المصادر الكثيرة التي استقى منها محتوى الكتاب وتتصل بعلوم كثيرة، وأورد سبعة وجوه يكون تفسير كتاب الله عليها [2].

---

(١) أنظر ترجمته في «نفح الطيب» للمقزي ٣/٢٨٩ ـ ٣٤١ و «بغية الوعاة» للسيوطي ص ١٢١ و «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي ص ٦٢ و «الطبقات للسبكي» ٩/٢٧٦ و «الوافي بالوفيات» ٥/٢٦٧ و «نكت الهميان» ٢٨٠ و «الدرر الكامنة» ٥/٧٠ و«شذرات الذهب» ٦/١٤٥ و«البدر الطالع» ٢/٢٨٨ و«حسن المحاضرة» ١/٥٣٤ و «ذيول تذكرة الحفاظ» ٢٣ و «طبقات القراء» لابن الجزري ٢/٢٨٥ و «طبقات المفسرين» للداودي ٢/٢٨٦ و «فوات الوفيات» ٢/٥٥٥ وانظر في ترجمة أبي حيان وتفسيره مقالاً قيماً لمحمد عبد الخالق عضيمة في مجلة كلية اللغة بالرياض العدد السابع سنة ١٣٩٧.

(٢) انظر «البحر المحيط» ١/٦ ـ ٧.

٧ ـ يذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وارتباط الآية بما قبلها وما بعدها.

٨ ـ يتحدث عن الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، فينقل أقوال الفقهاء من الأئمة الأربعة وغيرهم.

٩ ـ يذكر ما جاء في كلام المتقدمين من السلف والخلف.

١٠ ـ يتبع آخر الآيات بكلام منثور يشرح به مضمون تلك الآيات على ما يختاره من تلك المعاني.

١١ ـ ربما ألم بشيء من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ. يقول في المقدمة: (وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة الى هذيان افتروه على الله وعلى علي رضي الله عنه وعلى ذريته ويسمونه علم التأويل)[١].

١٢ ـ ينقل أبو حيان من تفسير الزمخشري كثيراً، ومن تفسير ابن عطية أيضاً، ويتعقبهما في آرائهما النحوية، ومن الجدير بالذكر ان أبا حيان يقف من الزمخشري مواقف عنيفة، ويسخر منه سخرية شديدة، من أجل آرائه الاعتزالية وإن كان يثني على مقدرته في الناحية البلاغية.

وقد طبع هذا الكتاب واعيد تصويره بعد حين وما يزال بحاجة إلى من يحققه وينشره نشراً حديثاً.

* * *

٢ ـ كتب إعراب القرآن:

هذه الكتب كثيرة كثرة تستلفت النظر حتى قال السيوطي[٢]:

---

(١) «البحر المحيط» ١/٥.

(٢) «الاتقان» ١/١٧٩.

(أفرده بالتصنيف خلائق. منهم مكي[1] وكتابه في المشكل خاصة، والحوفي[2] وهو أوضحها، وأبو البقاء العكبري[3] وهو أشهرها، والسمين[4] وهو أجلها على ما فيه من حشو وتطويل[5] ولخصه السفاقسي)[6].

وهناك كتب كثيرة في هذا الموضوع لمؤلفين قدامى ومتأخرين من أشهرها:

١ ـ كتاب «إعراب القرآن» للزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ وطبعه بهذا الاسم الاستاذ الأبياري[7] في ثلاثة مجلدات. وذكره ابن النديم في «الفهرست»[8] بعنوان «معاني القرآن».

٢ ـ كتاب «إعراب ثلاثين سورة من القرآن» لابن خالويه النحوي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، واسمه الحسين بن أحمد. وقد نشرته دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٠ هـ (١٩٤١ م).

---

(١) هو مكي بن حموش (٣٥٥ ـ ٤٣٧ هـ) الاندلسي، مقرىء عالم بالتفسير والعربية من أهل القيروان سكن قرطبة وتوفي فيها له كتاب «مشكل إعراب القرآن».

(٢) هو علي بن إبراهيم الحوفي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ. نحوي عالم باللغة والتفسير.

(٣) هو عبدالله بن الحسين (٥٣٨ ـ ٦١٦ هـ) عالم بالأدب واللغة والحساب، أصله من عكبرة بليدة على دجلة. ولد وتوفي ببغداد، وعمي في صباه وسنتحدث عن كتابه.

(٤) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، مفسر عالم بالعربية والقراءات، شافعي من أهل حلب، استقر في القاهرة، وتوفي سنة ٧٥٦ هـ.

(٥) وقد تعقب حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» ١/١٢٢ السيوطي فقال: (انه أجل ما صنف فيه، لأنه جمع العلوم الخمسة: الإعراب والتصريف واللغة والمعاني والبيان، وأما قول السيوطي فيه: (هو مشتمل على حشو وتطويل لخصه السفاقسي فجوده) فوهم منه، لأن السفاقسي ما لخص إعرابه منه، بل من «البحر».. والسمين لخصه أيضاً من «البحر» في حياة شيخه أبي حيان وناقشه فيه كثيراً).

(٦) هو إبراهيم بن محمد السفاقسي ولد سنة ٦٩٧ هـ أخذ عن أبي حيان بالقاهرة وقدم دمشق فسمع من المزي وتوفي سنة ٧٤٢ هـ.

(٧) وقد كتب صديقنا أحمد راتب النفاخ مقالين قيمين حول هذه الطبعة في مجلة مجمع دمشق ج ٤ م ٤٨ و ج ١ م ٤٩.

(٨) «الفهرست» ص ٩٦.

٣ ـ « التبيان في اعراب القرآن المجيد »[١] لأبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ. وهو كتاب من أشهر كتب إعراب القرآن، غير ان أبا حيان كان يتعقب أبا البقاء في كثير من مواضع تفسيره « البحر ».

وقد طبع مرات عديدة وطبع مؤخراً طبعة حديثة.

٤ ـ « المجيد في إعراب القرآن المجيد » للسفاقسي المتوفى سنة ٧٤٢هـ. وكتابه أحسن من الكتاب السابق، وهو كما يقول صاحب « كشف الظنون » في مجلدات. وقد ذكر في هذا الكتاب شيخه أبا حيان وكتابه « البحر »، ومدحه كثيراً غير أنه قال فيه: (لكنه سلك سبيل المفسرين في الجمع بين التفسير والاعراب فتفرق فيه المقصود)[٢] فاستخار الله في تلخيصه، وجمع ما بقي في كتاب أبي البقاء من إعرابه لكونه كتاباً قد عكف الناس عليه، فضمه إليه بعلامة الميم. وأورد ما كان له بعد كلمة: (قلت).

* * *

القواعد التي على معرب القرآن أن يراعيها:

يجب على معرب القرآن مراعاة ما يأتي:

١ ـ أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه، مفرداً أو مركباً قبل الإعراب. وقد قرّر ابن هشام[٣] أنه قد زلّت أقدام كثير من المعربين راعوا في الإعراب ظاهر اللفظ ولم ينظروا في موجب المعنى من ذلك قوله تعالى: ﴿أصلاتك تأمرك أنْ نترك ما يعبدُ آباؤنا أو أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء﴾[٤] فانه يتبادر إلى الذهن عطف (أن نفعل) على (أن نترك)، وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، وإنما هو

---

(١) وهو « إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ».

(٢) انظر « كشف الظنون » ٢/١٦٠٧.

(٣) « مغني اللبيب » ٢/٥٢٧ ـ ٥٢٩.

(٤) سورة هود: ٨٧.

عطف على (ما) فهو معمول للترك. والمعنى: أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء.

٢ ـ أن يراعي ما تقتضيه الصناعة وأن يكون ملماً إلماماً جيداً بقواعد النحو والصرف والأسلوب الأفضل عند العرب.

٣ ـ أن يتجنب الأُمور البعيدة، والاوجه الضعيفة، واللغات الشاذة، ويخرج على القوي والقريب والفصيح.

٤ ـ أن يراعي الرسم، ومن ثم خُطِّىء من قال في (سلسبيلا) الواردة في قوله تعالى: ﴿ويُسْقَوْنَ فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً. عَيْناً فيها تُسمَّى سلسبيلاً﴾ [١]: إنها جملة أمرية، أي سل طريقاً.

٥ ـ أن يتأمل عند ورود المشتبهات، ومن ثم خُطِّىءَ من قال في ﴿أحْصَى لِمَا لَبِثُوا أمداً﴾ [٢]: إنه أفعل تفضيل، والمنصوب تمييز، وهو باطل. فإن الأمد ليس محصياً بل يحصى.

وشرط التمييز المنصوب بعد (أفعل) كونه فاعلاً في المعنى. فالصواب في اعراب الآية أن (أحصى) فعل. وأن (أمداً) مفعول. مثل: ﴿وأحْصَى كلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ [٣].

٦ ـ ان لا يخرج على خلاف الأصل أو خلاف الظاهر بغير مقتض.

ـ أن يبحث عن الأصلي والزائد.

٨ ـ أن يجتنب اطلاق لفظ (الزائد) في كتاب الله، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له. وكتاب الله منزه عن ذلك، ولذا فر بعضهم إلى

---

(١) الانسان: ١٧ ـ ١٨.

(٢) الكهف: ١٢ وانظر خلاف البصريين والكوفيين في إعرابها في «البحر المحيط» ٦/١٠٤ ـ ١٠٥ و«أضواء البيان» ٤/٢٤ ـ ٢٧.

(٣) الجن: ٢٨.

التعبير عوضاً عن ذلك بالتأكيد، والصلة والمقحم).

* * *

٣ ـ القسم المتعلق بالأساليب البيانية:

رأينا فيما سبق أن التفسير بدأ في القرن الأول، ثم أخذ ينمو ويتضخم ابتداء من أواخر القرن الثاني، حتى أصبحت المؤلفات فيه لا يكاد يحصيها العد.

ولكن بدلاً من أن يبحث عن الجمال الفني في القرآن وتناسقه وانسجامه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال، أخذ التفسير يخوض في مباحث كلامية وفقهية قائمة على الجدل، وفي موضوعات نحوية وصرفية ولغوية. وقد رأينا مثالاً على ذلك فيما مضى.

وبذلك لم يستطع التفسير أن يحقق الغرض الذي من أجله قام، لأننا رأينا أن الغرض من التفسير هو الوقوف على معاني القرآن وإدراك أسرار اعجازه.

أما التأليف في التفسير البياني الذي يكشف عن وجوه الجمال والإعجاز، والذي يولي هذا الجانب الاهتمام الأكبر فقد كان متأخراً من جهة، وكان محصوراً في حقلين من جهة أخرى:

* الحقل الاول: حقل إعجاز القرآن، وقد تقدم البحث فيه في صدر الكتاب[1].

* الحقل الثاني: حقل المتكلمين والبلاغيين، وهذا ما نود أن نتحدث فيه الآن:

كان المعتزلة ـ وهم المشتغلون في علم الكلام ـ يحاولون أن يحتكروا

---

(١) أنظر الفصل السابع من الباب الأول من قسم القرآن وعلومه.

العناية بدراسة البلاغة القرآنية في القرنين الثاني والثالث. وكان من أهم أعلامهم واصل بن عطاء، والجاحظ، ومحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي وغيرهم، ولكنهم لم يفلحوا في أن يبقى البحث في البلاغة القرآنية وقفاً عليهم، إذ كان يقوم الى جانبهم دائماً عمالقة من أهل السنة يشاركونهم البحث في بلاغة القرآن بأصالة وعمق.

وفي القرن الخامس نجد أن شافعياً من أهل السنة، ومن عباقرة علماء العربية وهو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ يأخذ على عاتقه هذه المهمة وينتزع الراية من أيدي المعتزلة وقد بلغ غاية التوفيق المقدر لباحث في عصره، فلقد أوشك ان يصل إلى اكتشاف سر الجمال الفني، بصورة كاملة في كتابه « دلائل الإعجاز ».

قال الاستاذ سيد قطب: (لولا أن قصة المعاني والألفاظ ظلت تخايل له من أول الكتاب إلى آخره، فصرفته عن كثير مما كان وشيكاً أن يصل إليه، ولكنه على الرغم من ذلك كله كان أنفذ حساً من كل من كتبوا في هذا الباب)[1] ويستحق أن يدرس دور عبد القاهر في الدراسات القرآنية مفصلاً ومفرداً.

وقال الاستاذ سيد: (وأياً ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز، فإنها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة: تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه ـ الى الحد الذي تستطيع ـ دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل كله.

هذه الظاهرة قد برزت في البحث عن بلاغة القرآن، فلم يحاول أحد أن يجاوز النص الواحد إلى الخصائص الفنية العامة، اللهم إلا ما قيل في تناسق تركيب القرآن وألفاظه، أو استيفاء نظمه لشروط الفصاحة والبلاغة المعروفة، وهذه ميزات ـ كما قال عبد القاهر بحق ـ لا تذكر في مجال

(١) أنظر « التصوير الفني » ص ٥٩.

الاعجاز، لأنها ميسرة لكل شاعر وكاتب شب عن الطوق.

وبوقوف الباحثين في بلاغة القرآن عند خصائص النصوص المفردة، وعدم تجاوزها الى الخصائص العامة، وصلوا الى المرحلة الثانية من مراحل النظر في الآثار الفنية، وهي مرحلة الادراك لمواضع الجمال المتفرقة، وتعليل كل موضع منها تعليلاً منفرداً. ذلك مع ما قدمنا من أن هذا الادراك كان بدائياً ناقصاً.

أما المرحلة الثالثة ـ مرحلة إدراك الخصائص العامة ـ فلم يصلوا إليها أبداً لا في الأدب، ولا في القرآن، وبذلك بقي أهم مزايا القرآن مقفلاً خالياً)[1].

اما الكتب التي وصلت الينا في هذا المجال في تفسير القرآن فأهمها كتاب «الكشاف» للزمخشري. وفي العصر الحاضر الذي نهضت فيه الآداب وتقدم النقد قامت بعض الطاقات تخوض في هذا الميدان تحاول أن تستدرك ما فات الأقدمين، وسندرس محاولة الاستاذ سيد قطب الناجحة التي تدل على أصالة وذوق وإبداع.

فلنتعرف اذن الى «الكشاف» و«ظلال القرآن».

١ ـ الكشاف للزمخشري:

الزمخشري هو محمود بن عمر أبو القاسم. وقد عرف بجار الله، لأنه جاور في مكة مدة من الزمان. ولد في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ، وتوفي في جرجانية من قرى خوارزم سنة ٥٣٨ هـ. كان من أكبر رؤوس الاعتزال في عصره، وكان حنفي المذهب، وترك عدة كتب نافعة، من أشهرها: «أساس البلاغة» في مفردات اللغة التي تستعمل في المجاز، و«المفصل» في النحو و«الفائق» في غريب الحديث[2].

---

(١) «التصوير الفني» ص ٢٢.

(٢) أنظر ترجمته في «وفيات الأعيان» و «انباه الرواة» ٢٦٥/٣ و«البداية والنهاية» ٢١٩/١٢ و«شذرات الذهب» ١١٨/٤ و«الميزان» ٧٨/٤ و«لسان الميزان» ٤/٦ =

أما تفسيره فله مكانة كبيرة، وممّا يدل على هذه المكانة مدحه من قِبَل كل من وقفوا عليه، ومعظمهم من خصوم الزمخشري وخصوم المعتزلة كابن بشكوال والشيخ الهروي وأبي حيان والتاج السبكي وابن حجر. ولكل ممن ذكرنا أقوال في الثناء على «الكشاف».

* وسنذكر بعض الملاحظات حول هذا الكتاب:

١ ـ سبب تأليفه هو طلب جماعة من المعتزلة إلى الزمخشري أن يؤلف لهم تفسيراً، فكان يعتذر في بادىء الامر، إلى أن جاور في مكة، فطلب إليه أميرها أبو الحسن علي بن حمزة أن يكتب تفسيراً فاستجاب لذلك بعد أن كان قد بلغ من الكبر عتياً، وقد استطاع انجازه بسرعة كبيرة، ببركة هذا الحرم المعظم كما يقول في المقدمة:

(... ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم) ومعلوم ان خلافة ابي بكر سنتان وأربعة أشهر.

٢ ـ وكان الزمخشري معتداً بهذا الكتاب فخوراً به الى حد بعيد حتى نسب اليه السيوطي وصاحب «كشف الظنون»[1] وغيرهما البيتين الآتيين:

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي
ان كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء و«الكشاف» كالشافي

٣ ـ وعنوان الكتاب هو: «الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل».

= و«المنتظم» ١١٢/١٠ و«معجم الأدباء» ١٩/ ١٢٦ و«تذكرة الحفاظ» ١٢٣٨/٤ و«بغية الوعاة» ٣٨٨ و«طبقات المفسرين» للسيوطي ٤١ و«طبقات المفسرين» للداودي ٣١٤/٢ و«مفتاح السعادة» ٩٧/٢.

(١) «بغية الوعاة» ص ٣٨٨ و«كشف الظنون» ١٤٧٦/٢.

٤ ـ اللغة التي كتب بها الزمخشري كتابه لغة رفيعة سامية بليغة واضحة وقد خلا هذا التفسير من الحشو والتطويل، على أنَّ هذا الايجاز والتركيز لم يورث الكلام غموضاً ولا تعقيداً.

٥ ـ جمع هذا الكتاب خاصتين اثنتين لم توجدا في غيره:

أولاهما: انه أوسع كتاب في استجلاء نواحي الجمال في القرآن والكشف عن وجوه الاعجاز.

وهو تفسير لم يسبق مؤلفه اليه، لإبانته عن وجوه الاعجاز في آيات القرآن وبلاغته. وقد أعانه على تحقيق ذلك معرفته بلغة العرب، وإحاطته بعلوم البيان والنحو واللغة. قال في المقدمة:

(ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن. وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ).

وقد أثبت الزمخشري في «كشافه» أنه ممن اتصفوا بهذه الصفات إذ كان يعتمد في بيان المعنى على أساليب لغة العرب المعهودة في مأثور كلامهم.

ثانيهما: انه أضخم تفسير للمعتزلة وصل إلى أيدينا وهو يعبر عن عقائدهم من خلال شرحه للآيات، ويمكننا أن نقول: إنه جمع أقوال أئمة الاعتزال المتقدمين مثل الجاحظ والقاضي عبد الجبار وغيرهما من كبار المعتزلة.

ولا بد من الاشارة إلى أن الزمخشري قد يخالف المعتزلة في مواضع قليلة، ذهب فيها إلى خلاف الرأي الذي يتجه اليه علماء الاعتزال، فمن ذلك موضوع عذاب القبر الذي يذهب إلى إثباته ويناقش فيه المخالفين على طريقته (فان قلت... قلت)[1].

---

(١) «الكشاف» ١/٣٣٩.

وفي مثل هذه المواضع نجد ابن المنير يثني عليه وعلى صنيعه الثناء المستطاب، فيقول مثلاً في تعليقه على تفسير الزمخشري للآية ﴿وإنما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ (١).

يقول ابن المنير: (ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به) (٢).

٦ - بنى المؤلف مناقشته على طريقة افتراض السؤال، ثم وضع الجواب عنه. يبدأ بعرض السؤال بقوله: (فان قلت) ثم يأتي بالجواب مصدراً بقوله: (قلت).

٧ - يقل من ذكر الروايات الاسرائيلية، ويناقش ما يورده منها، وغالباً ما يردها، ولذا فاننا نستطيع أن نعد تفسيره «الكشاف» خالياً من الاسرائيليات نسبياً.

٨ - الأحاديث النبوية قليلة فيه أيضاً، وقلما يعتمد المؤلف على الحديث في شرحه لمعنى الآية، ومع ذلك فان فيه عدداً وافراً من الأحاديث الموضوعة دون أن ينبه على ذلك، ولا سيما في فضائل السور، إذ كان يورد في آخر كل سورة الأحاديث التي تشير الى فضلها وثواب قراءتها، ومعظمها موضوع.

٩ - يشتد على أهل السنة والجماعة ويذكرهم بعبارات فاحشة، وقد ينسبهم الى أهل الأوهام والخرافات، وقد ينسبهم - على سبيل التعريض - الى الكفر.

ومن أجل ذلك قال الرازي في «تفسيره»:
(خاض صاحب «الكشاف» في هذا المقام في الطعن في أولياء الله، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل ان يكتب مثله في الفحش. فهب انه اجترأ على

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) «الانتصاف» (المطبوع بهامش الكشاف) ١/٣٣٩.

الطعن في أولياء الله تعالى فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد ؟).

١٠ ـ الطابع العقلي والمذهب الكلامي واضحان في منهج الزمخشري في الكتاب ، ولذلك فان اعتباره ممثلاً لاتجاه التفسير بالرأي أمر مقبول.

١١ ـ وهو يؤول الآيات بما يتناسب مع نحلته ، ويصرفها عن ظاهرها بتكلف وتعسف. أنظر مثلاً تفسيره لقوله تعالى: « ناظرة » في الآية الواردة في سورة القيامة. ﴿كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ، وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾[1] لترى مدى التعسف ، وتحميل النصوص مالا تحمل ، ذلك لأن المعتزلة يرون أنه لا يمكن رؤية الله أبداً.

وهو كذلك في كل آيات الصفات يصرف الآية عن ظاهرها ، ويعتمد على المجاز والاستعارة.

١٢ ـ وقد يلجأ في رد دلالة الآية التي لا توافق مذهبه يلجأ إلى ادعاء انها من المتشابه ، يقف ذلك الموقف أمام النصوص التي تصادم مذهبه ، إن لم يمكنه تأويلها.

١٣ ـ يحسن عرض فكرته على الوجه المناسب حتى ان كثيراً من المغالطات لتخفى على كثير من الناس ، ولا سيما أن عدداً من هذه الموضوعات شائك ، ليس لدى جمهور الناس فكرة واضحة عنها ، ولذا فقد أحسن طابعوه الذين طبعوه مذيلاً برد عليه لابن المنير سنذكره بعد قليل.

* * *

تأثير « الكشاف » :

كان لكتاب « الكشاف » تأثير كبير على علماء المسلمين ، يدلنا على هذا التأثير :

---

(١) سورة القيامة : ٢٠ ـ ٢٣ . وانظر « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ١/١٧٢ ـ ١٧٣.

أ ـ الكتب الكثيرة: التي ألفت حول «الكشاف»، فقد كان منها كتب في الرد على الافكار المنحرفة التي وردت في الكتاب، وكان منها كتب تتعلق بتخريج الاحاديث، وكان منها كتب تتصل بالشواهد شرحاً واعراباً واتماماً، وكان منها كتب تعد شرحاً للكشاف، وكان منها كتب، تعد تلخيصاً له. وقد ألف هذه الكتب رجال من أهل السنة، بل ومن ائمة أهل السنة كما سنرى.

وسنذكر كتباً اربعة هي:

١ ـ «الانتصاف» للشيخ احمد بن محمد بن منصور المنيّر الاسكندري المالكي المتوفى سنة ٦٨٠هـ، وقد تعقبه في اعتزالياته تعقباً عجيباً، ولم يدع له اشارة ولا تصريحا دون أن يأتي عليه بالمناقشة والرد، وقد فنّد حججه، وقابل عنفه بعنف مثله أو أشد.

٢ ـ «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» لأمير المؤمنين في الحديث الامام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، وهو كتاب نافع جداً، لانه يوقف القارىء على درجة الحديث الذي يمر معه.

٣ ـ «حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف».

٤ ـ «مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف» للمرزوقي المذكور.

ب ـ ثناء كثير من خصوم الاعتزال على «الكشاف»، فلو لم يكن هذا الكتاب من قوة التأثير بهذه الدرجة لما كان منهم مثل هذا الثناء عليه.

قال ابن خلدون:

[والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب..... ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق، الّا أنَّ مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض في آي القرآن من طرق البلاغة.

فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة.

وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان.

ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف‌الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه وتعرّض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة. وفوق كل ذي علم عليم][1].

ج ـ وهناك كتب أخرى في التفسير تأثرت بالكشاف تأثراً كبيراً، لاعتماد مؤلفيها على هذا الكتاب بالذات اعتماداً كلياً، لا سيما في النواحي المتصلة بالبيان والبلاغة، ولم تعلن انها تدور حوله، ونستطيع ان نعد من هذا القبيل اسماء كثيرة من كتب التفسير التي جاءت بعد عصر المؤلف، وأوضح مثال على ذلك تفسير النسفي المتوفى ٧٠١ هـ والبيضاوي المتوفى ٧٩١ هـ.

د ـ ومن الطريف أن نورد رأي أبي حيان في «الكشاف» وذلك في قوله: [وأنت ترى هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي يبهر بجنسه الادباء، ويقهر بفصاحته البلغاء، وهو شاهد له باهليته للنظر في تفسير القرآن، واستخراج لطائف الفرقان][2] ثم وازن بينه وبين تفسير ابن عطية، وفي قوله في ابيات أثنى فيها على الزمخشري، ثم انتقده، وهذه الأبيات ذكرها في «البحر المحيط»[3] نختار منها ما يأتي:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٤٠ ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

(٢) «البحر المحيط» ١/٩ ـ ١٠.

(٣) «البحر المحيط»: ٧/٨٥ وديوان أبي حيان ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

ولكنه فيه مجال لناقد ... وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الاحاديث جاهلاً ... ويعزو الى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم اعلام الائمة ضلة ... ولا سيما ان أولجوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة ... بتكثير الفاظ تسمى الشقاشقا
يقوّل فيها الله ما ليس قائلاً ... وكان محباً في الخطابة وامقا
وينسب ابداء المعاني لنفسه ... ليوهم اغماراً وان كان سارقا
ويخطىء في فهم القران لأنه ... يجوز اعراباً أبى أن يطابقا
وكم بين من يؤتى البيان سليقة ... وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للالفاظ حتى يديرها ... لمذهب سوء فيه أصبح مارقا

* * *

٢ ـ « في ظلال القرآن » للاستاذ سيد قطب:

ترجمة المؤلف: ولد الاستاذ سيد سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) ودرس دراسته الابتدائية والثانوية في مصر، ثم دخل دار العلوم، وتخرج فيها يعمل في التدريس ثم شرع يشتغل في الصحافة والتأليف، فعرفته البلاد العربية كاتباً مجيداً وأديباً كبيراً، وناقداً أصيلاً.. ثم غلبت عليه الدراسات الاسلامية، فقضى بقية حياته مجاهداً يدعو إلى الله على هدىً وبصيرة، وتحمل من أجل ذلك الكثير، وضحى بالغالي والنفيس، وظل يقود فكر مثقفي العالم الاسلامي في أصعب الظروف، ومن وراء قضبان السجن إلى ان استشهد يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨٦ هـ الموافق لـ ٢٩ آب سنة ١٩٦٦ م. وخلف ثروة ضخمة من المؤلفات من أهمها:

الكتاب الذي نتحدث عنه وهو « في ظلال القرآن » و « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » و « خصائص التصور الاسلامي » و « الاسلام ومشكلات الحضارة » و « النقد الأدبي » و « معالم في الطريق ».

الكتاب:

قامت في مطلع هذا العصر نهضة دينية كان أبرز رجالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وكان لهذه النهضة أثر كبير في الجزيرة العربية وفي جميع أنحاء العالم الاسلامي... ثم جاء القرن الرابع عشر الهجري، فكانت فيه يقظة فكرية، ونهضة علمية، وذلك على أثر غزو الحضارة الأوروبية للمسلمين، واستيلاء دول أوربا على معظم ديار الاسلام. وكانت مصر أهم المراكز الفكرية في العالم الاسلامي، ولذلك فاننا نجد أن عدداً من النوابغ الذين عرفتهم الأمة والذين قادوا الحركة الفكرية والاصلاحية كانوا من أبناء مصر أو من سكانها الذين وفدوا اليها من جهة ما من العالم الاسلامي، وقصدوها ليمارسوا دورهم الهام من أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وغيرهم.

وقد نمت هذه الحركة وأثمرت ثمرات عديدة كانت خيراً على المسلمين ومن أهم ثمراتها التي تعنينا في بحثنا هذا تلك النهضة اللغوية التي بها اتصل الخلف بآثار السلف، وارتقت بسببها أساليب الكتابة، وظهرت طاقات ضخمة لا تقل عما عرفنا في تاريخنا، وشرع العلماء يبحثون ويحاولون أن يضيفوا إلى تراثنا زاداً جديداً، ويتابعون عمل الأجداد بهمة لا تكل، وأصالة وذوق.

وكان لدار العلوم دور محمود في هذه النهضة، فلقد خرجت عدداً من الاعلام الذين قدموا خدمات جليلة للغة القرآن... وكان من ابرزهم الاستاذ سيد قطب.

والاستاذ سيد ـ رحمه الله تعالى ـ اديب فذ، وناقد أصيل، وعالم متمكن، وكاتب موهوب، عني بالقرآن عناية كبرى، واستمر في دراسته القرآنية قرابة ثلاثين سنة.

---

(١) أنظر ترجمته في «الأعلام» وقد كتب يوسف العظم ومحمد علي قطب وابراهيم البليهي وغيرهم كتباً في حياته وآثاره.

كانت المحاولة الجدية الأولى في هذه الدراسات كتابه القيم «التصوير الفني في القرآن» الذي كان باكورة انتاجه القرآني. وقد كتب المؤلف قصة هذا الكتاب، فذكر أنها بدأت بنشر مقال في مجلة «المقتطف» سنة ١٩٣٩م تحت عنوان «التصوير الفني في القرآن» تناول فيه عدة صور فأثبتها وكشف عما فيها من جمال فني. وظل يعكف بين الحين والحين على القرآن يتملى صوره الفريدة إلى أن توفر على هذا البحث وأصدر كتاب «التصوير الفني في القرآن» وقرر أن حقيقة جديدة برزت له وهي: (أن الصور في القرآن ليست جزءاً يختلف عن سائره، ان التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل. القاعدة الاساسية المتبعة في جميع الأغراض ـ فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال ـ فليس البحث اذن عن صور تجمع وترتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز)[١].

ثم يقول: (ذلك توفيق لم أكن اتطلع اليه حتى التقيت به)[٢].

ويقول: (التصوير هو الاداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة)[٣].

ويقول: (ويجب أن نتوسع في معنى التصوير... فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالايقاع...)[٤].

ـ كان هذا الكتاب الموجز الجميل الخطوة الاولى التي انتهت بالمؤلف الى كتابة تفسيره الكبير «في ظلال القرآن».

---

(١) «التصوير الفني» ص ٩ ـ ١٠.

(٢) «التصوير الفني» ص ١٠.

(٣) «التصوير الفني» ص ٣٤.

(٤) «التصوير الفني» ص ٣٥.

وهكذا كان الاستاذ سيد الرجل الذي تابع عمل الباقلاني والجرجاني والزمخشري في الدراسات القرآنية من الناحية البيانية، واستطاع أن يصل الى ما لم يبلغوه.

وسنذكر بعض الملاحظات عن هذا التفسير لندل على أهم مزاياه وأبرز خصائصه بايجاز:

١ ـ قصة تأليف هذا الكتاب وسبب شروعه فيه أن المؤلف دعي من قبل مجلة شهرية ليكتب فصلاً شهرياً في موضوع مسلسل، فاختار عنوان «في ظلال القرآن» ثم تعاظمت الرغبة إلى إصدار ذلك الكتاب. يقول المؤلف في مقدمة الطبعة الأولى[١]:

(وكانت تعن لي خواطر متناثرة: خواطر في العقيدة، وخواطر في النفس، وخواطر في الحياة، وخواطر في الناس.. كنت أكتفي بأن أعيشها ولا أسجلها، فقد كان حسبي أن أعيش هذه اللحظات في تلك الظلال.. فلما أن صدرت «المسلمون»[٢] وكان عليّ أن أشترك في تحريرها بمقال شهري.. في موضوع مسلسل، أو تحت عنوان دائم، قفز إلى ذهني هذا العنوان: «في ظلال القرآن» ذلك كان مبدأ القصة.. ثم طمحت الرغبة، وامتد الأفق إلى محاولة أخرى، ماذا لو عشت فترات في ظل هذا القرآن كله فسجلت كل ما يخالج نفسي، وأنا أستروح هذا الجو العلوي الطليق؟.. ووفق الله وسرت في هذا الشوط خطوات).

٢ ـ يدل عنوان الكتاب «في ظلال القرآن» على السمة التي تميز الكتاب.. إنه كتاب يسجل الانطباعات والمشاعر التي يحسها المؤلف عند قراءته للقرآن.

---

(١) صدر الجزء الاول من هذه الطبعة سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.

(٢) وهي مجلة صدرت في مصر سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م ثم أصدرها صاحبها سعيد رمضان في دمشق ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م ثم انتقل بها إلى جنيف ثم توقفت ١٩٦٦ م.

يقول المؤلف:

(«في ظلال القرآن» عنوان لم أتكلفه. فهو حقيقة عشتها في الحياة، فبين الحين والحين كنت أجد في نفسي رغبة خفية في أن أعيش في ظل القرآن فترة استروح فيها ما لا أستروحه في ظل سواه، فترة تصلني بالسماء، وتفتح لي فيها نوافذ مضيئة، وكوى مشعة، وهي في الوقت ذاته تثبت قدمي في الأرض، وتشعرني أني أقف على أرض صلبة، لا تدنسها الأوحال، ولا تزل فيها الأقدام).

٣ - ويعلن بوضوح في هذه المقدمة أن تفسيره يختلف كل الاختلاف عن كتب التفسير الأخرى، ويصر إصراراً كبيراً على تقرير أنه لم يفعل في هذا الكتاب أكثر من أن يسجل أحاسيسه ومشاعره التي عاشها في ضل القرآن. يقول رحمه الله:

(وبعد، فقد يرى فريق من قراء هذه الظلال أنها لون من تفسير القرآن. وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادىء العامة للاسلام كما جاء بها القرآن. وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهي في الحياة والمجتمع، وبيان الحكمة في ذلك الدستور.

أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هذا كله، وما جاوزت أن أسجل خواطري وأنا أحيا في تلك الظلال).

ويدعو قراءه إلى أن تكون قراءتهم لهذه الظلال وسيلة ليدنوا من القرآن ذاته. يقول المؤلف:

(وانني لأهيب بقراء هذه الظلال ألا تكون هي هدفهم من الكتاب، إنما يقرؤونها ليدنوا من القرآن ذاته، ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته ويطرحوا عنهم هذه الظلال، وهم لن يتناولوه في حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته، وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته)[1].

---

(١) في ظلال القرآن ١٣/٦٢ ط ٢.

٤ ـ ويبين منهجه في هذا الكتاب، فيقرر أنه حاول أن يبتعد عن الموضوعات النحوية واللغوية، والقضايا الجدلية والكلامية، والمسائل الفقهية، وذكر أن الإسراف في ذلك يحجب القرآن عن روحه، ويستر جمال النص القرآني الأخاذ، قال رحمه الله:

(كل ما حاولته الا أغرق نفسي في بحوث لغوية، أو كلامية، أو فقهية، تحجب القرآن عن روحي، وتحجب روحي عن القرآن... وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآني ذاته من خاطرة روحية، أو اجتماعية، أو إنسانية. وما أحفل القرآن بهذه الايحاءات!).

وليس من شك في أن المؤلف رحمه الله قد استفاد من مختلف المناهج التفسيرية: كالتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير الاصلاحي، والتفسير البياني، ولذا فانك تجد في هذا التفسير الجميل جولات عميقة في هذه الجوانب المختلفة، وهذا يدل على اطلاعه الواسع، واستيعابه لما يقرأ، والقدرة على أن ينتفع بذلك في اطار شخصيته الواضحة، ومواهبه الفذة الأصيلة.

وهذه خاصة قل ان تتوفر للمؤلفين، إذ تجد كثيراً منهم ينقلون في منأى عن تدخلهم، ولا تكاد تحس بشخصياتهم.

٥ ـ ويشير الاستاذ المؤلف في مقدمته أيضاً إلى أن هذا الكتاب تطبيق على نظريته التي تحدثت عنها في مطلع هذه الكلمة وهي نظرية: التصوير الفني في القرآن، ويذكر انه في هذه الظلال يتذوق نواحي الجمال الفني في النص، ومواضع التناسق في التعبير والتصوير، ويعرض ذلك على الناس، قال رحمه الله:

(كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من احساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير، ولقد كانت هذه إحدى أماني منذ أن فرغت من كتاب «التصوير الفني

في القرآن» قبل ثمانية أعوام[1] وسجلت فيه ما بدا لي واضحاً يومذاك: أن التصوير هو القاعدة الواضحة في التعبير القرآني الجميل، وكنت قد ادرت الكتاب كله على هذاالمحور لشرح هذه القاعدة، والتمثيل لها من القرآن. كانت إحدى أماني أن يوفقني الله الى عرض القرآن في هذا الضوء، ثم كمنت الرغبة أو توارت حتى ظهرت مرة أخرى في هذه الظلال).

٦ - وخطة المؤلف - رحمه الله - في التفسير أن يعرض السورة كلها عرضاً إجمالياً، ثم يقسمها إلى مجموعات كبيرة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص، ويظللها ظل خاص. وبذلك تبدو وحدة النص القرآني، والترابط بين أقسام السورة. وهذه الخاصة لا تكاد تجدها بهذا الوضوح والكمال والتمام في تفسير آخر. قال رحمه الله: (ولقد سرت في هذا العمل الجديد على أساس عرض كل مجموعة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص ويظللها ظل خاص في صورة درس قرآني).

ويقدم بين يدي السورة مقدمة تتحدث عن غرض السورة وعن المحور الذي يجمع كل الموضوعات الواردة فيها، وهذه المقدمات التي تجدها تسبق السور في «الظلال» مقدمات هامة، تمهد للتفسير التفصيلي الذي سيأتي، وتبين الوحدة في السورة، وتعالج القضايا الاسلامية التي تشير اليها السورة بعقلية حركية، تستفيد من السيرة النبوية لتخطط للحركة الاسلامية في العصر الحاضر، وهي مقدمات طويلة، ولاسيما في الطبعة الثانية.. دلل المؤلف فيها على عمق أدراكه للمفاهيم الاسلامية، وحسن عرضه لها بلغة العصر مستقاة من القرآن الكريم. ومن أهم الأمثلة على ذلك مقدمة سورة الانعام ومقدمة سورة التوبة. وقد يختم السورة بخاتمة تجمع مقاصدها الاساسية، حيث يعرض المؤلف رحمه الله التوجيهات والنقط الرئيسية في السورة، ويستشهد لها ويوضحها بالآيات الكريمة. ومن أوضح الأمثلة على هذا ما ختم به تفسيره لسورة الرعد، وهي خاتمة تقع في ثماني عشرة صفحة.

(١) كتب المؤلف هذه السطور في رمضان سنة ١٣٧١هـ حزيران ١٩٥٢م.

٧ ـ يمتاز هـذا التفسير بـأسلـوب مـؤلفـه الموهـوب، فهـو يعـرض موضوعات القرآن ومعانيه بأسلوب أدبي حي أخاذ سهل بليغ.

وقد اجتنب كثيراً من المصطلحات العلمية التي نعثر عليها في كتب التفسير. فكان كتابه سائغاً مفهوماً مقبولاً من جماهير القراء، على انه كان يكثر من استعمال بعض الكلمات التي تكاد تكون خاصة به، وإن الذي يألف أسلوب المؤلف يستطيع أن يدرك بسهولة معناها، لاسيما إن كان قد قرأ كتابه «التصوير الفني في القرآن» فقد شرح بعضها هناك، هذا ومن الطبيعي أن نجد في كتابة الكتاب الكبار بعض الكلمات التي يكثرون من ترددها، كما نجد بعض الجمل الخاصة التي تعد مظهراً من مظاهر الأساليب الشخصية.

٨ ـ يعالج هذا التفسير الموضوعات القرآنية باعتزاز بالاسلام يفوق الوصف، وايمان به لا حد له، وبعقلية حركية تدعو إلى استئناف العمل بالقرآن في قوة وصراحة وحيوية، والى إعادة سلطان القرآن على الحياة الانسانية في نطاق الافراد والامم والعالم كله.

وعالج هذا التفسير بوعي عميـق أصيـل، وبحرارة بـالغـة، وعـاطفـة كريمة صادقة قضايا المسلمين الفكرية والاجتماعية والسياسية.

والم بقضايا الفكر المعاصر، والحضارة القائمة، وأعلـن بكـل وضـوح وتصميم ان المبادىء القرآنية هي ما تحتاج الانسانية إليه في أزمتها الراهنة اليوم.

٩ ـ ويتمتع المؤلف بتحرر تام من كل قيود العبودية الفكرية التي يرسف بها عدد من المفكرين المعاصرين، وهو على معرفته بحضارة الغرب لم يكن مأخوذاً بها ولا مبهوراً بالجوانب البراقة فيها، كان يقدرها حق قدرها، ويقومها التقويم السديد. ويحذر من سيئاتها ومساوئها التي تزحف على ديار الاسلام، وتتهدد حياتهم كلها.

١٠ - والمؤلف يضع العقل في محله الذي ينبغي أن يوضع فيه، دون أن يظلم العقل بتحميله ما لا يقوى على حمله، ودون أن يعطله فلا يسخره فيما خلقه الله له.

١ - ويربط المؤلف بين آيات القرآن التي فيها النور والهدى وبين واقع الجيل المثالي العظيم، الذي تلقى هذا القرآن ليعمل به ويقيم جوانب حياته عليه، وهو في تفسيره يدعو المسلمين إلى أن يأخذوا أنفسهم بالحزم، ويعملوا بالقرآن كما فعل أهل الصدر الأول زمن النبوة، ويحثهم على الانسلاخ من واقعهم المريض المتخلف، ليكونوا سعداء في بلادهم، وليسعدوا الانسانية كلها، لأنه يقرر أن المسلمين يملكون بهذا القرآن ما لاَ يملكه أحد سواهم في الدنيا، وليس عليهم إلا أن يكونوا هم الواقع الحي لمبادىء الاسلام لتجد فيهم الانسانية المعذبة الشقية طلبها.

١٢ - وأخيراً فان هذا التفسير يبرز قضية وحدة الرسالات السماوية، التي بعث الله بها انبياءه ورسله، إذ كانت جميعاً تدعو إلى التوحيد واسلام النفس لله وحده في الطاعة والعبادة.

* * *

كتب اخرى في التفسير البياني:

من أهم هذه الدراسات:

١ - « التفسير البياني للقرآن الكريم » للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء). وقد صدر منه جزءان الأول في سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦٢ م) والثاني في سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) وذكرت ان الاصل في منهج التفسير الأدبي (هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن عنه، ويهتدي بمألوف استعماله للالفاظ والاساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعا من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه الى الاهتداء الى الدلالة القرآنية لالفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية)

ثم قالت: (وأتجه بمحاولتي اليوم الى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار، ملحوظ فيها وحدة الموضوع، فضلا عن كونها جميعاً من السور المكية، حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الاسلامية، وقصدت بهذا الاتجاه الى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة في التفسير وبين منهجنا الحديث الذي يتناول النص القرآني في جوه الإعجازي، ويلتزم في دقة بالغة قولة السلف الصالح: «القرآن يفسر بعضه بعضاً»).

أما السور التي عالجتها في الجزء الأول فهي: الضحى والانشراح والزلزلة والنازعات والعاديات والبلد والتكاثر. والسور التي عالجتها في الجزء الثاني هي: العلق والقلم والعصر والليل والفجر والهمزة والماعون.

٢ ـ «من منهل الأدب الخالد» للاستاذ محمد المبارك: وهو دراسة تحليلية أدبية لنصوص من القرآن درس فيها النصوص الآتية: سورة العاديات، وسورة الحاقة، وبعض سورة النحل، وسورة يوسف... وألحق بذلك مقالين هما: عناصر الفكر والفن في الكتاب العربي المبين، والقرآن عربي الخطاب انساني الرسالة.

وقد أشار إلى طريقته في التفسير الأدبي فذكر أنها (تقوم على تلخيص الفكرة العامة للسورة أو النص، ثم بسط ما تضمنته من أفكار، وكشف ما بين هذه الأفكار من صلة وربطها بما تضمنه القرآن من مفاهيم وأفكار وأعمد في ذلك إلى عرض معاني الآيات والأفكار التي تضمنتها عرضاً مباشراً، هو حصيلة ما انتهى إليه رأيي في معانيها، دون أن أنقل مختلف أقوال المفسرين، ثم أعرض الطريقة الأدبية أو فن التعبير عن تلك المعاني والأفكار، كالوصف، والقصص، والمثل المضروب، والعرض المباشر، مع بيان خصائص هذا الفن وانسجامه مع الموضوع في النص الذي هو موضوع الدراسة. ثم انتقل بعد ذلك إلى دراسة الآيات من حيث تراكيبها وجملها ومفرداتها، وما لهذه التراكيب والألفاظ من خصائص أدبية بارزة، سواء من جهة المعنى وحسن التعبير عنه وقوته ودقته أم من جهة اللفظ وجرسه ونغمته، وما لذلك كله من صلة بالفكرة المعروضة).

* * *

الفصل الثاني

التفسير بالمأثور

مدرستان:

قامت مدرستان في التفسير منذ وقت مبكر، عرفت احداهما بمدرسة التفسير بالمأثور، وعرفت الأخرى بمدرسة التفسير بالرأي، وكان بين هاتين المدرستين حوار هادىء حيناً، وجدال عنيف وخصام أحياناً، وقد تشدد أصحاب المدرسة الأولى في تفسير القرآن تشدداً كبيراً حتى روي عن الأصمعي [1] - وهو على ما نعلم من سعة الاطلاع والتبحر في العلوم - انه كان إذا سئل عن شيء من الكتاب أو السنة يقول: العرب تقول معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب أو السنة أي شيء هو؟ وكانوا يتحرجون من الخوض في التفسير.

التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور اتجاه من أهم اتجاهات التفسير وأجدرها بالعناية، وهو أقدم هذه الاتجاهات كما سيتضح ذلك من خلال هذا الفصل.

ويعنون به: ان تُفَسَّرَ الآية من آيات القرآن الكريم بما يأتي:

١ - بما جاء في القرآن نفسه في موضع آخر ورد فيه معنى هذه الآية أكثر تفصيلا.

---

(١) «الباعث على الخلاص» ص ١٤٩ من مجلة أضواء الشريعة.

٢ ـ وبما ورد عن النبي ﷺ من تفسير.

٣ ـ وبما نقل عن الصحابة والعدول من التابعين مما يتصل بشرح الآية وذكر أسباب نزولها وفيمن انزلت.

* أما تفسير القرآن بالقرآن فإنه أشرف أنواع التفسير وأجلها، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله من الله جل وعـز [١]. والأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن كثيرة جداً، بل لقد ألّف العلامة المعاصر الشيخ محمد الامين الشنقيطي تفسيراً اعتمد فيه توضيح القرآن بالقرآن. وسنكتفي بذكر الأمثلة الآتية على ذلك:

ـ وردت كلمة (يوم الدين) في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ وفسَّرت آية أخرى المراد من هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ [٢].

ـ ووردت كلمة (كلمات) في قوله سبحانـه: ﴿فتلقـى آدم مـن ربـه كلمات فتاب عليه﴾ [٣]، وفسرت آية اخرى المراد من هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [٤].

ـ وقصة موسى ذكرت بايجاز في قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبياً﴾ [٥] ولكن هذه القصة

---

(١) «أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن» ١/٣.

(٢) سورة الانفطار، آخرها.

(٣) سورة البقرة: ٣٧.

(٤) سورة الاعراف: ٢٣.

(٥) سورة مريم: ٥١ ـ ٥٤.

وردت مبسوطة مطولة في مواضع متعددة من القرآن مثل السور الآتية: البقرة والأعراف وطه والشعراء والقصص وغيرها.

- وكذلك قصة آدم وإبليس، وقصة ثمود، وردت موجزة في بعض المواضع ومفصلة في مواضع اخرى.

* أماتفسير القرآن بما ورد عن النبي ﷺ من تفسير فإنه يلي تفسير القرآن بالقرآن. وقد فسَّر النبي ﷺ عدداً كبيراً من الآيات، يشهد لذلك ما جاء في كتب الحديث من تفسيره ﷺ للقرآن فقد جاء في «صحيح البخاري» و«سنن الترمذي» وغيرهما أبواب طويلة في تفسير القرآن. قال ابن تيمية: (يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ للناس ما نزل اليهم﴾[1] يتناول هذا وهذا)[2]. والأمثلة على تفسير النبي ﷺ كثيرة نقتصر منها على المثال الآتي:

- ورد في آيات الصيام قولهِ تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾[3]. وجاء في «صحيح البخاري» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما (الخيط الأبيض من الخيط الأسود) أهما الخيطان؟ قال ﷺ: «انك لعريض القفا ان ابصرت الخيطين» ثم قال: «لا.. بل هو سواد الليل وبياض النهار»[4].

* وأما تفسير الصحابة فكثير وقد أشرنا إليه في بحثنا عن تاريخ التفسير في عهد الصحابة وقد امتلأ به كتاب ابن جرير الطبري وغيره من كتب التفسير بالمأثور ونكتفي بالمثال الآتي:

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) «مقدمة في اصول التفسير» ص ٣٥.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

(٤) «صحيح البخاري» ٤٤/٦ و«شرح معاني الآثار» ٥٣/٢.

ـ جاء في «صحيح البخاري» في تفسير قوله تعالى: ﴿والانصاب والأزلام﴾[1]: (قال ابن عباس: الأزلام: القداح يقتسمون بها في الأمور، والنصب: أنصاب يذبحون عليها)[2].

* واما تفسير التابعين فكثير جداً، وقد حفل به كتاب ابن جرير الذي أشرنا إليه آنفاً. ونكتفي بالمثال الآتي:

ـ جاء في «صحيح البخاري» في تفسير قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة﴾[3] (عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم التي لا يحمل عليها شيء)[4].

هل تفسير الصحابة والتابعين من المأثور؟

اختلف العلماء في عد تفسير الصحابة والتابعين من المأثور، فمنهم من عده مأثوراً، ومنهم من لم يعده كذلك. غير ان معظم كتب التفسير بالمأثور تورد منه الكثير.

ولعل الرأي الصحيح في هذا الموضوع هو الرأي الذي سبق أن قررناه في تاريخ التفسير وهو: ان ما جاء عن الصحابة والتابعين العدول فيما ليس من باب الاجتهاد والاستنباط وانما هو متوقف على السماع من النبي ﷺ يعد من التفسير بالمأثور، وهو ملزم إن صح سنده[5].

واما الاقوال المنقولة عنهم مما يتصل بالاجتهاد والاستنباط فليست من التفسير بالمأثور.

---

(١) سورة المائدة: ٩٠.

(٢) «صحيح البخاري» ٦/٤٤.

(٣) سورة المائدة: ١٠٣.

(٤) «صحيح البخاري» ٦/٤٦.

(٥) هذا صحيح بالنسبة إلى الصحابة، أما التابعي فقد يكون روى عن تابعي غير ثقة.

إذن فتفسير الصحابة والتابعين لا يعد من التفسير بالمأثور إلا إن كان متعلقاً بالسماع من النبي ﷺ، وذلك كالإخبار عن أمر غيبي لا مجال فيه للاستنباط والاجتهاد، ولا يمكن إعمال العقل فيه، ولا الاعتماد على استنتاجه.

ومما يلحق بهذا النقل عن لسان العرب لأن القرآن إنما نزل بلغتهم وهم أهل اللغة وأدرى الناس بها.

ونستطيع أن نقول: إن أهم أنواع التفسير بالمأثور هو التفسير المروي عن رسول الله ﷺ وهو الذي يذهب الذهن إليه عندما نطلق «التفسير بالمأثور».

متى يقبل التفسير بالمأثور؟

إن التفسير بالمأثور - فيما عدا التفسير بالقرآن بطبيعة الحال - يقبل إن صح سند هذا الأثر المفسِّر للآية، ويلزمنا الأخذ به.

أما إذا كان سنده واهياً فلا شك في رده. ولذلك فإن علينا لنحكم على أثر بالقبول او الرد أن ننظر في رجال سنده لنعرف درجته.

أوليته:

لئن كان رسول الله ﷺ هو المفسر الأول لنستطيعن أن نقرر جازمين ان التفسير بالمأثور هو المرحلة الأولى في تاريخ التفسير وانه اول ما ظهر من أنواع التفسير. وقد ذكرنا سابقاً ان التفسير كان باباً من أبواب الحديث قبل أن يستقل، وما زال هذا الباب ركناً من أركان كتب الحديث الجامعة.

* * *

الاسرائيليات:

نجد في كتب التفسير بالمأثور أخباراً كثيرة مروية عن بني اسرائيل،

وهذه الأخبار عرفت بالإسرائيليات، وذلك بسبب النقل عن عدد من التابعين الذين كانوا من أهل الكتاب قبل أن يدخلوا في الإسلام، والذين كانوا كثيراً ما يسألون عما في كتب أهل الكتاب، ودخلت هذه الأخبار في مجال التفسير بالمأثور. ومن هنا وجب على من يقرأ في كتب التفسير أن يكون واعياً للموقف السليم الذي يجب أن يقفه المسلم من الإسرائيليات، ويمكن تلخيص هذا الموقف كما يأتي:

١ ـ تردّ كل الاسرائيليات التي تعارض القرآن، أو صحيح السنة، أو تعارض أصلا اسلامياً مقرراً. قال الاستاذ محمد أبو زهرة: (وإن المستقرىء لكتب التفسير المشتملة على الاسرائيليات يرى أن أكثر ما دس فيها من هذا القبيل)[1].

٢ ـ الروايات الاسرائيلية الموافقة للقرآن مقبولة، ولكن لنا غنية عنها بما في القرآن.

٣ ـ أما الروايات التي لا تعارض القرآن ولا توافقه، فينبغي أن يكون موقفنا إزاءها موقف الحذر والأناة والحياد. لا نكذبها خشية أن تكون صحيحة، ولا نصدقها خوفا من أن تكون مكذوبة. وهذا مصداق ما جاء عن رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم و﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...﴾» الآية...[2]

---

(١) «المعجزة الكبرى» ٥٩٥.

(٢) انظر «صحيح البخاري» ١٨/٦ تفسير سورة البقرة في باب ﴿قولوا آمنا بالله﴾ و٩٠/٩ في الاعتصام: باب لا تسألوا أهل الكتاب و١٢٦/٩ في كتاب التوحيد: باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها. وانظر «فتح الباري» ٥١٦/١٢. وجاء في رواية ذكرها ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ٦٣/١٩: «.. ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وقولوا آمنا...»

والآية المذكورة هي الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

قال ابن الملك تعليقاً على هذا الحديث: (إنما نهى عن تصديقهم وتكذيبهم لأنهم حرّفوا كتابهم، وما قالوه إن كان من جملة ما غيّروه فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل، وإن لم يكن كذلك يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق)[1].

٤ ـ وهناك استدراك على هذا النوع الثالث من الاسرائيليات ذكره ابن كثير عند أول تفسيره سورة ق قال رحمه الله: (وإنما اباح الشارع الرواية عنهم في قوله «وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج»[2] فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل)[3].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: (.. ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه (لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني)[4].

والحق الذي نراه أن هذا التقسيم يبيح لنا أن نروي عن بني إسرائيل

---

(١) انظر «مبارق الأزهار» ١/٢٢٠.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ٤/١٣٦ والدارمي ١/١٣٦ والترمذي ٣/٣٧٦ عن عبد الله ابن عمرو. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود عن أبي هريرة ٣/٤٣٨ ورواه أيضاً أحمد في «المسند» ورواه آخرون.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٤/٢٢١.

(٤) انظر «مقدمة في أصول التفسير» ص ١٠٠.

النوع الثالث المسكوت عنه إن نحن التزمنا عدم تصديقهم وعدم تكذيبهم. ولكن هذا شيء، وإيراد هذه الاسرائيليات في أثناء تفسير كتاب الله شيء آخر، ذلك لأن إيراد هذه الرواية في هذا الموضع يعني أنك تريد حمل الآية القرآنية عليها، وهذا يدل على تصديقك لها.

قال الأستاذ أحمد شاكر في مقدمة «عمدة التفسير»:

(إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولا أو رواية في معنى الآيات أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر، لأنّ في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما اجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك.

وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غفراً)[1].

وقال الحافظ ابن كثير:

(وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين، والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال)[2].

---

(١) «عمدة التفسير» لأحمد شاكر طبع دار المعارف ١٣٧٦/١٩٥٦ ص ١٥.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٣/٨٩ عند تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف.

وقال أيضاً:

(.. وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً. وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين. ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة)[1].

ونختم هذا الموضوع بإيراد كلمة رائعة لابن عباس رواها البخاري في «صحيحه» وهي قوله رضي الله عنه: (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي انزل الله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم الله ان أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي انزل إليكم)[2].

* * *

(١) «تفسير ابن كثير» ٣/١٨١ عند تفسير الآيات ٥١ ـ ٥٦ من سورة الأنبياء.

(٢) «صحيح البخاري» ٣/١٥٨ و٩/٩٠.

تفسير الطبري

ترجمته[1]:

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. من أهل آمل في طبرستان. ولد سنة ٢٢٤ هـ ورحل من بلده وهو في الثانية عشرة من عمره طلباً للعلم، فجاء مصر والشام والعراق، واستقر ببغداد، وكان من أئمة الحديث أهل الرواية والضبط المتقن، وقد شارك البخاري في كثير من أساتذته، وروى عن العراقيين والشاميين، كان ذا ثقافة موسوعية، فهو كما قلنا من كبار أئمة الحديث، وهو شيخ المؤرخين، ومن كبار علماء القراءات، ومن فحول علماء العربية، كما كان إماماً مجتهداً صاحب مذهب فقهي. وذكروا ان اصحابه يقال لهم: الجريرية. وقالوا: إن مذهبه شافعي، وذلك قبل أن ينفرد بمذهب. وكان من الأتقياء الصالحين. وكان ذا اسلوب رفيع متين، وله شعر حسن. توفي سنة ٣١٠ هـ ببغداد.

---

(١) انظر في ترجمته: «تاريخ بغداد» ١٦٢/٢ و«المنتظم» ١٧١/٦ و«وفيات الأعيان» ١٩١/٤ تحقيق إحسان عباس و«معجم الأدباء» ٤٠/١٨ و«طبقات الشافعية» ١٢٠/٣ و«تذكرة الحفاظ» ٧١٠/٢ و«البداية والنهاية» ١٤٥/١١ و«ميزان الاعتدال» ٤٩٨/٣ و«الوافي بالوفيات» ٢٨٤/٢ و«طبقات الشافعية» للعبادي ٥٢ و«غاية النهاية» لابن الجزري ١٠٦/٢ و«طبقات المفسرين» ١٠٦/٢ و«طبقات الفقهاء» للشيرازي ٩٣ و«لسان الميزان» ١٠٠/٥ و«النجوم الزاهرة» ٢٠٥/٣ و«شذرات الذهب» ٢٦٠/٢ و«التاج المكلل» ص ١٠٨ و«كشف الظنون» ٤٣٧/١ و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان ٤٥/٣.

تفسيره:

كتابه من أهم كتب التفسير وسنورد بعض الملاحظات فيه:

١ ـ عنوان الكتاب هو «جامع البيان من تأويل آي القرآن».

ويدل هذا العنوان على ان هذا التفسير جاء بعد تفاسير عديدة، كما يدل أيضاً على انه كتاب موسع. وتذكر كتب التراجم قصة تأليف هذا الكتاب، وفحواها: ان أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة[١].

٢ ـ من المعروف المشهور ان كتاب ابن جرير من كتب التفسير بالمأثور، غير ان هناك بعض العلماء ينكرون ذلك الرأي، ومنهم الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور الذي يقول:

(وإن الذين يعتبرون تفسير الطبري تفسيراً أثرياً، أو من صنف التفسير بالمأثور إنما يقتصرون على النظر إلى ظاهره بما فيه من كثرة الحديث والإسناد، ولا يتدبرون في طريقته وغاياته التي يصرح بها من إيراد تلك الأسانيد المصنفة المرتبة الممحصة)[٢].

والحق ان تفسيره بالإضافة إلى غناه بالآثار والأحاديث يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، وذكر الإعراب والاستنباط.

٣ ـ كان تفسير الطبري مفقوداً منذ قرون أو في حكم المفقود.. وظل كذلك إلى ان عثر على نسخة مخطوطة لدى الأمير حمود آل الرشيد

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي ٦/١٧١ و«تاريخ بغداد» ٢/١٦٣.

(٢) «التفسير ورجاله» ص ٣٦.

من أمراء حائل في نجد، وقد طبع عليها الكتاب[1] لأول مرة، ثم طبع بعد ذلك عدة طبعات. وقد شرع الأستاذ محمود محمد شاكر منذ سنة ١٣٧٤هـ بطبعه طبعة جديدة هي غاية في الروعة والاتقان، وصدر منها حتى الآن ١٦ جزءاً. وكانت الأجزاء الأولى بالاشتراك مع أخيه العلامة أحمد شاكر رحمه الله الذي كان يراجعه ويخرج أحاديثه ثم استقل الأستاذ محمود بعد الجزء الثامن بتحقيق الكتاب وتخريج الأحاديث[2].

٤ ـ أثنى العدد الغفير من العلماء الأفاضل في مختلف العصور على هذا الكتاب، ومن ذلك قول الإمام المحدث الكبير ابن خزيمة: (نظرت فيه من أوله إلى آخره، فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير)[3]. ومن ذلك قول أبي عمر الزاهد غلام ثعلب: (قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره فما وجدت فيه حرفاً خطأ في نحوٍ أو لغةٍ)[4]. ومن ذلك قول الخطيب البغدادي الذي قال فيه: (جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره)[5]. ومن ذلك قول ابن تيمية: (وتفسير ابن جرير الطبري هو من

---

(١) «التفسير والمفسرون» ١/٢٠٨ ينقل ذلك عن «المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن» ص ٨٦.

(٢) جاء في تصدير الجزء العاشر من تفسير الطبري الذي كتبه محمود محمد شاكر ما يأتي:
(... كنتُ أشرتُ في تصدير الجزء الرابع أني شاركت أخي... في بيان حال رجال الآثار، وخرجت ما اتفق منها... أما منذ الجزء التاسع فقد انفردت بالعمل كله فخرجت عامة أحاديث الجزء التاسع والعاشر..)
وجاء في تصدير الجزء الحادي عشر من التفسير المذكور الذي كتبه الشيخ أحمد شاكر ما يأتي:
(كنت منذ بدأتُ العمل في هذا التفسير... مع أخي السيد محمود محمد شاكر باذلاً جهدي في مراجعة بعض أسانيده خصوصاً الأحاديث المرفوعة مخرجاً منها ما استطعت تخريجه... ثم تفضل أخي... بمعاونتي في التخريج، فخرَّج الكثير من الأحاديث في الكثير من الأجزاء وهو أهل لذلك والحمد لله... وكنت ولا أزال مطمئناً إلى عمله واثقاً به عن خبرة وبينة).

(٣) «تاريخ بغداد» ٢/١٦٤.

(٤) مقدمة محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٢.

(٥) «تاريخ بغداد» ٢/١٦٣.

أجل التفاسير وأعظمها قدراً)[1]، وقوله: (وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحُها تفسير محمد بن جرير الطبري فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين)[2]. ومن ذلك قول السيوطي: (اجمع العلماء المعتبرون أنه لم يؤلف في التفسير مثله)[3]. وهو من التفاسير القديمة التي وصلت إلينا، ومن أحسنها ترتيباً.

٥ - كتب مقدمة طويلة جداً، وهي في حدِّ ذاتها كتاب مستقل. وقد تحدث فيها عن وسائل المفسر التي يجب عليه أن يحصل عليها ويتقنها. وكتب فيها فصلاً في الكلمات التي اتفقت فيها الفاظ العرب وألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم، أي في الألفاظ القرآنية التي ليست بعربية على ما يرى آخرون، وخصص فصلا مطولاً فسر فيه حديث الأحرف السبعة التي نزل القرآن عليها.

وقد ذكرنا رأيه في بحث القراءات. وكتب فصلا في معنى قوله ﷺ: «أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة»، وكتب فصلاً في المقدمة يهاجم فيه أولئك الذين يفسرون القرآن بآرائهم، وتكلم في الحض على تفسير القرآن وتعلمه، وكتب فصلاً في الرد على منكري القول في تأويل القرآن، وفصلاً في المفسرين المحمودين والمذمومين، وفصلاً في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه، وفصلاً في تأويل أسماء الفاتحة، ثم فسر الاستعاذة والبسملة.

وقد استغرقت المقدمة ما يزيد على ١٣٠ صفحة.

٦ - يمتاز هذا الكتاب بالمنهجية، فلقد درج المؤلف على خطة تحكم الكتاب من أوله إلى آخره.

فهو يضع عنواناً للآية كما يأتي: القول في تأويل قوله جل ثناؤه (... كذا...).

---

(١) الفتاوى ١٣/٣٦١.

(٢) الفتاوى ١٣/٣٨٥.

(٣) الاتقان ٢/١٩٠.

ثم يفسر الآية بعد أن يسردها، ويبين المراد منها، ويولي بيان الصلة بين الآية والآية اهتماماً كبيراً، حتى يتضح الترابط في السياق والموضوعات، ويلجأ إلى شرح الآية بما ورد في معناها من القرآن في مواضع اخرى منه، وله جولات في بعض المفردات اللغوية جيدة، إذ يبين المعنى الأصلي للمفردة، ثم يبين المعنى المنقول إليه مع بيان مناسبة النقل. ثم يورد أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين والعلماء في تفسيرها متصلة بالأسانيد إلى أصحابها، ويرجح بينها، ويختار واحداً منها يعتمده، ويناقش من يخالفه في تفسير الآية على الوجه الذي اختاره. وعنده عبارات يكثر من ترديدها، سأورد بعضها فيما يأتي:

(القول في تأويل قوله جل ثناؤه) ـ (اختلف أهل التأويل في...)

(وأولى هذه الأقوال بالصواب واشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة قول من قال) ـ (ذكر من قال ذلك) ـ (وبمثل ما قلنا قال أهل التأويل) ـ (وبنحو ما قلنا قال أهل التأويل) ـ (وبنحو الذي قلنا في ذلك قال عدد من أهل التأويل ذكر من قال ذلك).

٧ ـ والمؤلف في آرائه التي يوردها في تفسيره واضح الشخصية، جازم غير متردد ولا مقلد، وهو ينتقد اولئك الذين يبحثون فيما لا فائدة منه، ويعرض بهم كثيراً، ويقف عند الحد الذي تدل عليه الآية، ولا يجاوزه الى اقوال لا ينفع العلم بها، ولا يضر الجهل بها، فمن ذلك قوله في تحديد البعض الذي ضرب به قتيل بني إسرائيل فقام حيا: (الصواب من القول عندنا في تأويل قوله ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾[1] أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة، ليحيا المضروب، ولا دلالة في الآية، ولا في خبر تقوم به حجة على أي ابعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل بها. وجائز أن يكون الذي امروا أن يضربوه به هو الفخذ،

---

(١) سورة البقرة: ٧٣.

وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف وغير ذلك من ابعاضها، ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله)[1].

ومن ذلك رأيه في تحديد الطعام الذي كان على المائدة التي نزلت استجابة لدعوة عيسى عليه السلام: ﴿قال عيسى بن مريم: اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين﴾[2].

قال المؤلف بعد أن أورد أقوال العلماء في الذي كان على المائدة: (وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون كان ثمراً من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا اقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل)[3].

وشخصية المؤلف ذات الجوانب الجذابة جعلت كتابه مرجعاً مهماً لعدد من ذوي الاختصاص ممن يريد التفسير.

إن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية، وترجيحاته لما يراه صوابا من الآراء والأقوال المختلفة، واعتماده على خطة منهجية سليمة، ومقاييس علمية ولغوية جعلت لكتابه من القيمة ما ليس لكتاب آخر، وأعطت مكانة لكتابه لا تقل عن مكانة الآثار والروايات والآثار الحديثية.

٨ ـ أسلوبه أسلوب مبين جزل فصيح يمتع قارئه ويفيده. وليس من شك في أن أسلوبه يحتاج من دارسه إلى أناة في قراءته حتى يكون قادراً

---

(١) «تفسير الطبري» ٢/٢٣١ تحقيق محمود شاكر.

(٢) سورة المائدة: ١١٤.

(٣) «تفسير الطبري» ١١/٢٣٢ تحقيق محمود محمد شاكر.

على استيعاب ما جاء فيه. وقد ذللت طبعة الأستاذ شاكر كثيراً من مصاعبه.

يقول الأستاذ محمود شاكر: (كان يستوقفني في القراءة كثرة الفصول في عبارته، وتباعد أطراف الجمل، فلا يسلم لي المعنى حتى اعيد قراءة الفقرة منه مرتين أو ثلاثا، وكان سبب ذلك اننا ألفنا نهجاً من العبارة غير الذي انتهج أبو جعفر، ولكن تبين لي أيضاً ان قليلا من الترقيم في الكتاب خليق أن يجعل عبارته أبين)[1].

٩ ـ وهو في كتابه نصير لأهل السنة من ناحية الاعتقاد. وكثيراً ما يرد على القدرية والفرق الضالة.

١٠ ـ ويعنى بالقراءات فيوردها، ويوازن بينها، وقد يرد بعضها أو يرجح بعضها على بعض، وهو في تصديه لهذه الناحية يدل على معرفة واسعة بالقراءات، وقد سبق أن ذكرنا أنه ألف فيها كتاباً خاصاً[2].

١١ ـ يشتمل هذا الكتاب على عدد كبير من الأحاديث والآثار المسندة، وكثير منها صحيح، وفيها الضعيف أيضاً، ولكن المؤلف بذكره لأسانيدها يخرج من المسؤولية والعهدة، وقد أشار السيوطي في «الاتقان»[3] إلى مواضع الضعف في مرويات ابن جرير التفسيرية.

وهناك من جملة المرويات عدد كبير من الإسرائيليات، ولعل ذلك ناتج عن اتساع معارفه التاريخية، يقول الأستاذ شاكر: (ولما رأيت أن كثيراً من العلماء كان يعيب على الطبري أنه حشد في كتابه كثيراً من الرواية عن السالفين الذين قرؤوا الكتب وذكروا في معاني القرآن ما ذكروا من الروايات عن أهل الكتابين السالفين ـ التوراة والانجيل ـ أحببت أن

---

(١) مقدمة محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١١.

(٢) انظر مبحث القراءات من هذا الكتاب.

(٣) «الاتقان» ٢/٢٢٤.

أكشف عن طريقة الطبري في الاستدلال بهذه الروايات رواية رواية، وأبين كيف أخطأ الناس في فهم مقصده، وأنه لم يجعل هذه الروايات قط مهيمنة على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحببت أن أبين عند كل رواية مقالة الطبري في إسنادها، وانه اسناد لا تقوم به حجة في دين الله ولا في تفسير كتابه، وان استدلاله بهاكان يقوم مقام الاستدلال بالشعر القديم...)[1]. ولكنَّ الأفضل خلوٌّ التفسير من هذه الروايات. وتعليل أستاذنا شاكر مردود.

هذا وقد تولى الأستاذ المحدث أحمد شاكر التحقيق في أسانيد الروايات والأحاديث وذكر درجتها في الأجزاء الأولى ثم تابع عمله أخوه الأستاذ محمود ـ كما ذكرنا ـ.

١٢ ـ يورد المؤلف اقوال ائمة الفقه في آيات الاحكام، وينفرد أحياناً ببعض الآراء التي تخالفهم مؤيداً رأيه بالحجة القاطعة، ويبحث ذلك بحثاً فقهياً رصيناً، وكيف لا يكون كذلك وهو إمام صاحب مذهب. وكان في بحوثه الفقهية يعير الإجماع أهمية كبيرة.

١٣ ـ يورد المؤلف أقوال النحويين في تخريج بعض التراكيب القرآنية، وكثيراً ما يجعل التخريج النحوي الراجح توجيهاً للقراءة. وكثيراً ما يورد إعراباً لمواضع في الآيات، وأوزاناً صرفية لبعض الكلمات، ويستشهد لما يذهب اليه بالشعر الجاهلي والاسلامي، وكذلك في رده على مخالفيه. وقد أعد الأستاذ شاكر فهرساً للمباحث النحوية في آخر كل جزء من الأجزاء التي صدرت.

ولذلك فإن في البحوث التي وردت في كتابه ثروة علمية ضخمة جدا.

١٤ ـ يمتاز هذا الكتاب بتأثيره الواسع الضخم على كل الكتب التي

---

(١) انظر مقدمة محمود شاكر من «تفسير الطبري» ١٦/١ ـ ١٧ وانظر تعليقه ٤٥٣/١ ـ٤٥٤.

الفت بعده، حتى أضحى كثير منها عيالاً عليه، واعتمد عليه كل من جاء بعده، وقد كان هذا التأثير في القديم والحديث كما أسلفنا، وفي العصر الحاضر اهتم به المستشرقون والعلماء المسلمون.

ويبدو ان كتاب ابن جرير كان مصدرا للتأليف عند المتقدمين، فبعضهم يختصره، وبعضهم يستخرج منه كتباً، كما فعل أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي الأندلسي المتوفى سنة ٤١٩ هـ.. فقد استخرج من تفسير الطبري كتاب «اختصار غريب القرآن» وألف كتاب «مختصر من تفسير الامام الطبري» وقد طبع الكتاب الاخير في سلسلة (تراثنا) في الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م اقتصر فيه مؤلفه على أبرز الروايات في نظره، واستغنى عن الاشارة الى تعدد القراءات والاعراب والاشتقاقات والاخبار.

١٥ ـ كان كتابه نواة لما وجد بعد من التفسير بالرأي.

كتب أخرى في التفسير بالمأثور:

هناك كتب عديدة من كتب التفسير بالمأثور سنقتصر على إيراد أسماء ثلاثة كتب منها: ونخص أحدها ـ وهو تفسير ابن كثير ـ بكلمة موجزة. أما هذه الكتب فهي: «معالم التنزيل» للبغوي الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠هـ و«تفسير ابن كثير» لإسماعيل بن عمرو المتوفى سنة ٧٧٤هـ و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

كتاب «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير:

ابن كثير هو عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير. ولد سنة ٧٠٠ هـ ببصرى جنوبي دمشق، ونشأ يتيماً بدمشق، ورزق حافظة نادرة، فاشتغل بالحديث، ودرس الفقه، وألف فيه، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل. وانكب على كتب التفسير، وألف كتابه الذي نحن

في صدد الحديث عنه الآن، وترك كتاباً في التاريخ سماه « البداية والنهاية » وهو كتاب جيد.

لازم الحافظ المزي وتزوج بنته، وأخذ عن ابن تيمية، واحبه، واثنى عليه في « البداية والنهاية ». توفي سنة ٧٧٤ هـ.

وأما كتابه فهو من أشهر كتب التفسير بالمأثور، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً في الناس، وزادت المطابع في عصرنا من شهرته، فطبع أكثر من مرة، مستقلا حيناً، ومع تفسير آخر[1] حيناً آخر. وعنوان الكتاب هو « تفسير القرآن العظيم »، وقد قدم له بمقدمة طويلة قيمة تحدث فيها عن أصول التفسير، ويبدو أنه استفاد فيها كثيراً من كلام شيخه ابن تيمية في رسالة له في اصول التفسير.

وطريقته أن يذكر الآية أو الآيات، ثم يفسرها بعبارة سهلة، ويورد بعض الآيات التي توضح الآية إن وجدت، وهو على ذلك حريص جداً، وهذا شأنه في تاريخه أيضاً عند تعرضه لقصص الانبياء، ثم يورد الأحاديث التي تتعلق بالآية. ثم يأتي بأقوال الصحابة والتابعين، يورد ذلك كله بأسانيده. وقد يرجح بعض الأقوال على بعض، وقد يرد بعض الأقوال. وهو يورد في تفسيره نادراً بعض الاسرائيليات، وقد ينبه أحياناً الى منكراتها، وقد جمع الاستاذ احمد شاكر في مقدمة « عمدة التفسير » طائفة من أقواله التي تعبر عن رأيه في الاسرائيليات. ويتعرض إلى الموضوعات الفقهية وقد يدخل في بحوث فقهية موسعة. وهو متأثر الى حد كبير بتفسير ابن جرير (فانه لم يقتصر على نقل الآثار بل نقل كلام ابي جعفر بنصه في مواضع متفرقة)[2] وقد شرع الاستاذ احمد شاكر بتهذيبه في كتاب سماه « عمدة التفسير » وصدرت منه أجزاء خمسة ولكنه توفي قبل أن يتمه رحمه الله. وظهرت مختصرات عدة لهذا الكتاب فيما بعد.

---

(١) طبع مع « تفسير البغوي ».

(٢) انظر مقدمة محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٤.

الفصل الثالث

التفسير بالرأي

سبق أن ذكرنا اتجاهين قاما في التفسير هما: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وقد فصلنا القول في التفسير بالمأثور في الفصل السابق، ونريد أن نبحث في هذا الفصل عن التفسير بالرأي[1]. ونود أن نذكر هنا أن خلافاً شديداً قام بين العلماء حول هذا التفسير، فمنهم من منعه، ومنهم من اجازه، والذي نراه هو أن تحديد المراد من كلمة (الرأي) يزيل كثيراً من الخلاف والجدل، لأن كلا الفريقين يفهم كلمة الرأي فهماً لا يوافقه عليه الفريق الآخر.

أما **المانعون** فقد ذهبوا الى حظره وتحريمه، واستدلوا على ذلك بأدلة أهمها:

١ ـ قالوا: إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، وهو غير جائز.

٢ ـ واستدلوا بالآية الكريمة ﴿وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[2] وفهموا من الآية ان البيان للرسول، وليس لغيره إلا أن ينقل قوله بعد تحري ما صح. وواضح أن مثل هذا القول يخرج من دائرة المأثور ما يروى عن الصحابة، وان كانت كل كتب التفسير بالمأثور تمتلىء بأقوال الصحابة بل بأقوال التابعين أيضاً.

---

(١) انظر في التفسير بالرأي «أعلام الموقعين» لابن القيم ١/٣٨ و ٥٣ ـ٧٣.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

٣ - واستدلوا بالحديث «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم. فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[١] وبالحديث: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٢].

٤ - واستدلوا بامتناع كثير من الصحابة والسلف من القول في تفسير القرآن، كأبي بكر رضي الله عنه وسعيد بن المسيب والشعبي والاصمعي.

وأما **المجيزون** فقد ناقشوا هذه الادلة وبينوا أنها لا تنطبق عليهم كما يأتي:

١ - قالوا: ليس التفسير بالاجتهاد قولاً على الله بغير علم. وإنما هو استخدام العقل في فهم كتاب الله العظيم. وقد جعل الله للمصيب اجرين وللمخطىء أجراً واحداً. واحتجوا بالحديث المشهور في كتب الأصول وهو (أن رسول الله ﷺ سأل معاذاً حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال معاذ: بكتاب الله. قال النبي ﷺ: فان لم تجد؟ قال معاذ: فبسنة رسول الله. قال فان لم تجد؟ قال معاذ: اجتهد رأيي. فضرب رسول الله ﷺ

---

(١) أورده الترمذي في باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (انظر «تحفة الاحوذي: ٦٥/٤) وفي كتاب الترمذي رواية اخرى هي «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». وقال: حديث حسن صحيح. وانظر تعليق الألباني على هذا الحديث في «المشكاة» ٧٩/١.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٣٦/٣ والترمذي ٦٥/٤ من حديث جندب بن عبدالله، ولكن الحديث ضعيف لأن في سنده سهيل بن أبي حزم وهو ضعيف. وانظر «الباعث على الخلاص» للحافظ العراقي بتحقيقنا ص ١٤٧ - ١٤٨ وهناك حديث موضوع قريب من هذا الحديث ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ٢٧٤/١ ونصه: «من فسَّر القرآن برأيه فأصاب كتبت عليه خطيئة لو قسمت بين العباد لوسعتهم، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار» وفيه أبو عصمة نوح بن أبي مريم.
وانظر تخريج الحديث الأول وغيره في تعليقات شاكر على تفسير الطبري ٧٨/١ وانظر «المشكاة» ٧٩/١.

في صدره وقال: الحمدلله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله)[1].

٢ ـ واجابوا عن الاستدلال بالآية ﴿وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[2] بأن في الذي ورد بيانه عنه ﷺ كفاية عن كل تفسير، وأما الذي لم يرد عنه ﷺ بيانه ففيه مجال لأن يعمل أهل العلم الأكفياء تفكيرهم فيه ويقفوا على أسراره. وقالوا: إنه لا تعارض بين الآية والتفسير بالرأي.

٣ ـ واجابوا عن الحديثين بأن النهي محمول على من قال برأيه في مثل متشابه القرآن مما لا يعلم إلا عن طريق النقل عن النبي ﷺ. وقالوا: إن المراد من كلمة (الرأي) الواردة في الحديثين هو الرأي الذي يغلب على صاحبه من غير دليل، والهوى الذي يميل اليه المرء ولو كان الحق في غير جانبه. وقالوا: إن النهي محمول على من يقول في القرآن بظاهر العربية من غير أن يرجع إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله، ونقلوا لنا تفسير الرسول ﷺ لآيات القرآن الكريم ومن غير أن يتقيد بشروط التفسير.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٥/٢٣٠ و٢٣٦ و٢٤٦ وأبو داود ٣/٤١٢ والترمذي ٢/٢٧٥ وقال عقبه: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل) وابن ماجه والدارمي ١/٦٠ وأورده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١٢٦ وأخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» ١/١٨٨ ـ ١٨٩ من طرق عدة وصححه وذكر أنَّ أهل العلم قد تقبلوه واحتجوا به. وأخرجه ابن كثير في مقدمة تفسيره ١/٣ وقال: (وهذا الحديث في «المسند» والسنن بإسناد جيد كما هو مقرر في موضعه) وقال في «البداية والنهاية» ٥/١٠٣: (.. وقد رواه ابن ماجه من وجه آخر عنه من طريق محمد ابن سعيد بن حسان وهو المصلوب أحد الكذابين) فتأمل.
وقال الذهبي: وأنى له الصحة، ومداره على الحارث بن عمرو وهو مجهول عن رجال من أهل حمص لا يدرى من هم عن معاذ (وانظر «طبقات الشافعية» ٥/١٨٧).
ونقل الشيخ ناصر الألباني عن البخاري أنه قال فيه: إنه حديث منكر (انظر كتابنا الحديث النبوي ص ٢٥) وانظر «منزلة السنة في الاسلام» للألباني ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

قال الغزالي في «الاحياء»[1]: [وأما النهي في الحديث فإنه ينزل على أحد وجهين:

أحدهما أن يكون للمفسر في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وَفْق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى...

والوجه الثاني من التفسير بالرأي أن يسارع المفسر إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ التي لها أكثر من معنى...] . وأضافوا الى ذلك أن الحديث الثاني حديث ضعيف لا يحتج به أصلاً.

٤ ـ وقالوا في إحجام من أحجم من الصحابة والسلف رضوان الله عليهم عن التفسير بالرأي: إنما كان منهم ورعا. ويمكن أن يكون إحجامهم مقيداً بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، ويمكن أن يقال أيضاً: إنما أحجم من أحجم منهم لأنه لم يكن يتعين للاجابة، وكان هناك أناس يقومون بهذه المهمة، وإلا فان لم يكن هناك سواه لشرح كتاب الله وجب عليه التفسير حتى لا يكون كاتماً للعلم.

* * *

ولم يكتف هؤلاء العلماء برد أدلة المانعين، وإنما احتجوا لقولهم بأدلة عديدة سنقتصر على ايراد أهمها:

١ ـ قالوا: إن القرآن نفسه يأمر بالتدبر والاستنباط، واستشهدوا بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرسول وإلى أولي الأمر مِنْهمُ لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[2] وبقوله تعالى: ﴿أفَلا يَتدبَّرُون القُرْآن أمْ عَلَى قلوبٍ

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٢٩٨.

(٢) سورة النساء: ٨٣.

أَقْفَالُها﴾[1] وبقوله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إليكَ مَباركٌ ليدَّبَّرُوا آياتِهِ وليتذكَّرَ أولُو الالبابِ﴾[2].

ولا يكون التدبر إلا بالتأمل الذي يعتمد على الفهم وإعمال الفكر والاجتهاد. وبذلك يكون القرآن نفسه آمراً بالتفسير بالرأي. فتدبر القرآن متوقف على فهمه، ولا نستطيع أن نفهم الآيات التي لم يرد في شرحها اثـر أو حديث الا بأن نجتهد في تفسيرها ضمن الشروط التي نص العلماء على ضرورة توافرها.

٢ ـ لو كان الاجتهاد بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً، ولتعطلت بسبب ذلك كثير من الاحكام الشرعية.

٣ ـ فسر الصحابة القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، ولم يسمعوا كل شيء قالوه من النبي ﷺ. بل هناك من الأقوال ما سمعوه، وهناك ما اجتهدوا فيه. هذا ومن المروي عن رسول الله ﷺ دعاؤه لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[3].

* * *

ويقرر الامام الراغب الاصفهاني الحق في هذا الموضوع بأجلى بيان. وذلك حيث يقول: (فمن اقتصر على المنقول اليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج اليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى ﴿لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ولِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾[2].

وكما سبق أن قلت في مطلع هذا الفصل: إن تحديد مدلول كلمة (الرأي) يحسم الخلاف، والنظر المتأني العميق في دوافع كل من الفريقين

---

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) انظر تخريجه في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب عند بحثنا في التفسير في عهد الصحابة.

يظهر تقارب وجهات النظر بينهما، حتى يكاد يبقى الخلاف بصورة لفظية، (فالرأي) عند أهل الأثر هو الهوى الذي لا يضبطه ضابط، وهو بهذا المعنى مكروه من الفريقين، بينما (الرأي) عند القائلين بالتفسير بالرأي هو الاجتهاد المقيد بقيود وإعمال الفكر في كتاب الله على ضوء هداه وشرح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

* * *

اشترط العلماء القائلون بالتفسير بالرأي أن تتوافر في المفسر القدرة التي تمكنه من التفسير، ولا بد أن يكون المفسر ملماً بعلوم اللغة وعلوم القرآن والعلوم الاسلامية والعلوم الاجتماعية العامة، هذا بالاضافة إلى اشتراطهم في المفسر أن يكون ورعاً يخاف الله وذا إمكانات عقلية جيدة مما ذكرناه في مبحث أصول التفسير.

إذا كان التفسير بالرأي ضمن هذه الحدود فان الحق يقضي بقبوله وإقراره، وهو الشيء الطبيعي الذي يقتضيه التفاعل مع الكتاب الكريم، واستنطاقه في شؤوننا المعاصرة. ولا بد من الاشارة الى أن أتباع الفرق الضالة التي عملت في التفسير كانت تعتمد التفسير بالرأي لتنفذ عن طريقه إلى نشر ضلالاتها وآرائها المنحرفة.

وقد يكون كلام الذين أنكروا التفسير بالرأي إنكاراً عنيفاً، قد يكون كلامهم نتيجة لاطلاعهم على كلام هؤلاء المنحرفين والله أعلم.

* * *

تفسير الرازي

كتب التفسير بالرأي كثيرة من أهمها: «الكشاف» و «تفسير الرازي» و «تفسير البيضاوي» و «النسفي» و «الخازن»... وسندرس فيما يأتي تفسير الرازي:

ترجمته:[1]

هو محمد بن عمر التيمي البكري أبو عبد الله، فخر الدين الرازي ولد في الري سنة ٥٤٤ هـ ونسب اليها[2]، وهو قرشي النسب.

---

(١) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» و «البداية والنهاية» ٥٥/١٣ و«ميزان الاعتدال» ٣٤٠/٣ و«لسان الميزان» ٤٢٦/٤ و«شذرات الذهب» ٢١/٥ و«النجوم الزاهرة» ١٩٧/٦ و«الوافي بالوفيات» ٢٤٨/٤ و«طبقات الشافعية» ٨١/٨ و«مفتاح السعادة» ١١٦/٢ و«تاريخ الخلفاء» للقفطي ٢٩١ و«تاريخ ابن الوردي» ١٢٧/٢ و«ذيل الروضتين» ٦٨ و«طبقات المفسرين» للسيوطي ٣٩ و«طبقات المفسرين» للداودي ٢١٣/٢ و«الكامل» ١٣٣/١٢ و«هدية العارفين» ١٠٧/٢.

(٢) الريُّ مدينة مشهورة، وقد نسب إليها عدد من العلماء، وهي الآن تابعة لطهران ومتصلة بها بالمباني والعمران.

وذكر لي زميلي محمد صديق العوضي أنَّ العامَّة هناك يسمونها (شاه عبد العظيم) لأنَّ هذا الرجل مدفون فيها.

وفي تعليل وجود الزاي بالنسبة إليها نقل العوضي أسطورة عن معجم فارسي معروف هو «برهان قاطع» أوردها على سبيل الطرفة، وملخص هذه الأسطورة أنَّ رجلين بنيا هذه المدينة القديمة أحدهما (ري) والآخر (راز) واختلفا في تسمية المدينة، وكل منهما يريد=

رحل في طلب العلم، واستطاع أن يبلغ فيه المنزلة العالية، فقد كان متفوقاً في العلوم العقلية والنقلية، وكان طبيباً مشهوراً، وكان واعظاً بارعاً، وكان يحسن الفارسية، وله شعر بها وبالعربية. وكان صاحب وقار، له هيئة جميلة، اذا ركب مشى معه نحو الثلاثمائة. توفي في هراة سنة ٦٠٦ هـ.

ألف كتباً كثيرة في عدد من العلوم، وله طريقة في التأليف خاصة به، لم يسبق اليها، ولا شكَّ أنّ كتابه في التفسير أشهر كتبه، وله كتاب آخر مشهور وهو في علم الكلام وهو «تأسيس التقديس» وقد ألّف ابن تيمية كتاباً جليلاً في الرد عليه وهو «نقض التأسيس»[1]. ولقد أحصى مترجموه كتبه فكانت شيئاً كثيراً. ذكر له الاستاذ محيي الدين عبد الحميد خمسين مؤلفاً عربياً وأشار إلى مؤلفاته بالفارسية[2] وزاد الاستاذ عبد الله الصاوي على ما ذكر محيي الدين ٢٣ كتاباً.

كتاب «مفاتيح الغيب»:

١ ـ جاء الرازي في زمن أصبحت فيه للثقافة الاسلامية فلسفة مستقلة متميزة، حيث ضعف سلطان المعتزلة، ولم يعد الفلاسفة الذين هم امتداد الفلسفة اليونانية هم وحدهم في الميدان.

وقد تأثر الرازي بعصره وبهذه الفلسفة، كما تأثر ببعض الشخصيات أمثال الغزالي والجويني والباقلاني، ولم يلبث أن أصبح الرازي أحد أساطين هذه الثقافة الاسلامية، لقد تطلع الى أن يضع القرآن العظيم موضع الدراسة

= أن يسميها باسمه، وتوسط ناس في حل النزاع فسموا المدينة (الري) وقالوا إن النسبة إليها (رازي). وهي أسطورة لا تصح.

(١) طبع كتاب ابن تيمية في مكة بتحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم سنة ١٣٩١ هـ.

(٢) انظر مقدمة الاستاذ محيي الدين لتفسير الرازي طبع المطبعة المصرية سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣).

والبحث والتحليل، على منهج يكشف تفوق القرآن على سائر الطرائق الفلسفية، وانفراده بالقدرة على هداية البشر الى غايات الحكمة.

قال الرازي في وصيته[1] التي أملاها قبل موته:

(لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفية). ونقل ابن الصلاح عن الطوعاني عن الرازي قريباً من هذا الكلام[2].

ومن أجل ذلك كان يرى أنه ينبغي على الناس أن يلتفتوا الى القرآن وحده، ليجدوا فيه الحق... وقد وضع لهم تفسيره هذا ليكون معواناً لهم على تبصر هذه الحكمة السامية في الهداية.

٢ ـ وطريقة الرازي في التفسير: ان يفسر الآية من نواح متعددة لغة وبلاغة وفقهاً وما الى ذلك. ثم يأتي بعد ذلك الى الاستنباط، فيذكر المسائل التي يمكن أن تبحث بما يوحيه النص ويشير اليه.

وكان مولعاً بكثرة الاستنباطات، يدل على ذلك قوله في مقدمة تفسيره:

(اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن سورة الفاتحة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب).

٣ ـ يبدو أنه لم يؤلف كتابه متسلسلًا على أنه كتاب واحد، ولم يتبع

---

(١) انظر الوصية كاملة في «طبقات الشافعية» ٨/٩٠ وفي آخر ترجمته التي كتبها عبدالله الصاوي في آخر الجزء ٣٢ من «تفسير الرازي» ص ٢١٥.

(٢) انظر «شذرات الذهب» ٥/٢١ ـ ٢٢.

في تفسير السور ترتيب المصحف، يستنتج هذا من التواريخ التي وضعها المؤلف في نهاية عدد من السور.

فقد ذكر أنه انتهى من سورة في تاريخ معين، ثم ذكر في السورة التي ترتيبها في المصحف بعدها أنه انتهى من تفسيرها في تاريخ يسبق ذلك التاريخ.

وهكذا فكأنه كان يَعُدُّ تفسير كل سورة بحد ذاته كتاباً مستقلاً، وترى ذلك واضحاً في مقدمة سورة الفاتحة.

٤ ـ في الكتاب كلام يتصل بالمؤلف وأحواله في مناظراته ورحلاته، فمن ذلك مثلاً ما جاء في نهاية سورة يونس حيث قال:

(يقول جامع الكتاب: ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الاصم رجب سنة إحدى وستمائة، وكنت ضيق الصدر، كثير الحزن، بسبب وفاة الولد الصالح محمد، أفاض الله على روحه وجسده أنوار المغفرة والرحمة، وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين، أن يخص ذلك المسكين بالدعاء والرحمة والغفران، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد، وآله وصحبه أجمعين).

ومن ذلك ذكر رحلته الى خوارزم، وإيراد مناظرة جرت له هناك مع بعض النصارى. جاء في تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾[1] (اتفق لي حين كنت بخوارزم أن أخبرت أنه جاء نصراني يدعي التحقيق والتعمق في مذهبهم، فذهبت اليه وشرعنا في الحديث...) وساق جدله في مسألة الوهية المسيح والسؤال عن بطلان ذلك بأوجه قال في ختام تقريرها:

(وعند ذلك انقطع النصراني ولم يبق له كلام).

---

(١) سورة آل عمران: ٦١.

٥ ـ لم يكن المؤلف متعصباً لمذهبه الشافعي، فهو مثلا عندما تعرض لآية الصدقات قال: (هذه الآية لا دلالة فيها على قول الشافعي...).

٦ ـ يمتاز هذا التفسير بالبحوث الواسعة الفياضة في نواحٍ شتى من العلم، حتى صدقت فيه كلمة ابن خلكان: (إنه جمع فيه كل غريب وغريبة).

٧ ـ يذهب بعض العلماء[١] إلى أنه لم يتم الكتاب بنفسه، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

ـ أنهم وجدوا في الكتاب بعض المقاطع التي تدل على أن كاتبها غير الفخر الرازي، فمن ذلك ما جاء عند قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾[٢]: (المسألة الأولى أصولية ذكرها الامام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها) ثم قال: (وقد أجاب عنه الامام فخر الدين ـ رحمه الله ـ بأجوبة كثيرة، وأظن به أنه لم يذكر ما أقوله فيه).

ـ في أول الكتاب لا يحيل المؤلف قارئه على بحث تقدم، وتكثر هذه الاحالات في القسم الأخير من الكتاب.

ولكن الشيخ ابن عاشور يرى رأياً آخر عبَّر عنه بالكلمات التالية: (إن الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير، تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي، وبقي شيء في الأمالي والمسودات بيد بعض تلاميذه، فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق في ذلك الفرع بالأصل، فالكتاب بروحه هو للرازي كله، وبتحريره هو من وضعه في الأول

---

(١) من هؤلاء العلماء ابن حجر في «الدرر الكامنة» جـ ١ ص ٣٠٤، وابن خلكان في «وفياته» وابن قاضي شهبة وحاجي خليفة في «كشف الظنون» ١٧٥٦/٢.

(٢) سورة الواقعة: ٢٤.

ووضع تلميذه.. في الآخر)[1].

وإدراج بعض الكلام من النساخ في كثير من الكتب أمر موجود بكثرة في كتب ثقافتنا الاسلامية، وهو هنا محتمل الوجود جداً، فليس بعيداً أن يكون الناسخ من أهل العلم، وقد زاد بعض العبارات بما لا يخرج بالكتاب عن أصله وروح مؤلفه.

٨ ـ قيمة الكتاب تبدو في أنه أول محاولة ناجحة لانتزاع علم التفسير من الطائفتين اللتين احتكرتا هذا العلم وهما: طائفة المحدثين وطائفة الأدباء المعنيين بالبلاغة، وهذه المحاولة مكنت طائفتين أخريين أن تشتغلا فيه وهما المختصون في أصول الدين (التوحيد وعلم الكلام) والمختصون في أصول الفقه.

والرازي من أهل هذين الفنين كما رأينا، وقد جعل أتباعه من العلماء في هذين الحقلين يخوضون في التفسير، وبذلك اتجهت كتب التفسير وجهة جديدة.

٩ ـ لا يترك مسألة من مسائل الاعتزال تتصل بما هو في صدد تفسيره إلا ويعرضها ويرد عليهم، وينقض حججهم، ويقرر مذهب أهل السنة.

ويتعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة ويرد عليهم، وإن كانت طريقته في البحث على نمطهم واسلوبهم، ويأخذ ابن حجر عليه تقصيره في رد أقوال أهل الضلالات بعد أن يعرضها عرضاً جيداً[2]. وكذلك فقد انتقده الذهبي وأبو حيان والسيوطي.

قال الذهبي: [بل يطالع المدرسون تفسير الفخر الرازي، وفيه إشكالات وتشكيكات لا ينبغي سماعها، فإنها تحير وتمرض ولا تشفي

---

(١) «التفسير ورجاله» للشيخ محمد بن عاشور ص ٩٠.

(٢) «لسان الميزان» ٤/٤٢٧.

غليلاً. نسأل الله العافية][1].

وقال السيوطي: [الامام فخر الدين قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشُبهها، وخرج من شيءٍ إلى شيءٍ حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية. قال أبو حيان في «البحر»: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال العلماء: فيه كل شيءٍ إلا التفسير][2].

١٠ ـ يكثر من الاستطراد إلى العلوم الكونية والفلكية.

١١ ـ يهتم بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور أيضاً، وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة، بل كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة.

---

(١) «بيان زغل العلم» ١٩ ـ ٢٠.

(٢) «الاتقان» ٢/١٩٠ أقول: ونقله عن العلماء قولهم فيه: (فيه كل شيء إلا التفسير) كلمة ظالمة يردها التأمل الواعي في كتابه.

الفصل الرابع

التفسير العلمي

من مدارس التفسير التي شاعت في هذا العصر ما يدعى «التفسير العلمي»[1].

---

(١) من المصادر التي بحثت في موضوع التفسير العلمي:

- التفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد ـ دار المعارف بمصر.
- من الآيات العلمية لعبد الرزاق نوفل (الأنجلو مصرية ١٩٦٦ م).
- القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل (الكتاب العربي بيروت دون تاريخ)
- القرآن والعلم لأحمد سليمان (دار العودة بيروت ١٩٧٨ م)
- القرآن يتحدى لأحمد عز الدين عبد الله خلف الله (السعادة مصر ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م).
- سنن الله الكونية لمحمد أحمد الغمراوي. وبين الدين والعلم للغمراوي.
- الاسلام والطب الحديث لعبد العزيز اسماعيل.
- الاسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي ـ دار الكتب الحديثة سنة ١٩٧٨ م.
- ما دلّ عليه القرآن للألوسي ـ طبع المكتب الاسلامي.
- الدين والعلم للمشير أحمد عزت باشا وقد علّق عليه عبد الوهاب عزام وحمزة طاهر.
- الاسلام يتحدى لوحيد الدين خان ترجمة ظفر الاسلام خان من ٢٠٥ ـ ٢٢٧.
- الفلسفة القرآنية للعقاد (فصل القرآن والعلم) و (فصل تفسير القرآن في العصر الحديث)
- العلوم الطبيعية في القرآن ليوسف مروة (بيروت ١٣٨٧ ـ ١٩٦٨ م).
- مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية للغماري. مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٧.
- من إشارة العلوم في القرآن الكريم، عبد العزيز سيد الأهل ـ دار النهضة الحديثة بيروت ١٣٩٢.

وللتفسير العلمي جذور في ثقافتنا التفسيرية القديمة التي خلفها السلف، ونستطيع أن نعد الغزالي في «الإحياء»[1] و «جواهر القرآن» و «القسطاس المستقيم» و «الحكمة في مخلوقات الله»، والرازي في «مفاتيح الغيب» من اوائل الباحثين فيه، وقد سار في هذا السبيل السيوطي حيث عقد باباً في «الاتقان» تحدث فيه عن العلوم المستنبطة من القرآن، ونقل أقوالا لعدد من العلماء في أن كل شيء في القرآن، ثم نقل مقالة أبي الفضل المرسي وغيره في هذا الصدد[2].

ولكننا في مطلع القرن الهجري الرابع عشر نرى هذا اللون من التفسير قد راج ونما، وتوسعت ارجاؤه وتعددت، وتخصص فيه بعض المؤلفين. فما هو؟ وما الرأي فيه؟.

إنه تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية.

ويعتمد هذا التفسير على التوسع في مدلول الكلمات، والآيات القرآنية، والاستيحاء من الكلمة منقطعة عن سياقها في الآية أحياناً، والاعتماد على الإشارات من هنا ومن هناك أحياناً أخرى، ويذهب القائلون به إلى أن الاعجاز إنما يتحقق في الإعجاز العلمي، ويقررون بأسلوب خطابي أن كثيراً من النظريات العلمية الحديثة التي تفتق عنها الذهن البشري المعاصر بعد أجيال من الخبرة والمعرفة، وركام من التجارب، قد سبق إليها القرآن قبل بضعة عشر قرناً وأشار اليها، ويحاولون الاستدلال بتحميل الألفاظ فوق ما تحمل ويتكلفون لذلك ويتمحلون.

كان الاهتمام بهذا اللون من التفسير نتيجة لانبهار نفر منا بضياء الحضارة الاوروبية، التي فتحنا أعيننا على مخترعاتها وثمرات علومها، فذهب

---

(١) انظر «الاحياء» الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ١/٢٥٩.
(٢) انظر «الاتقان» ٢/١٢٥ ـ ١٣١.

هذا النفر يتلمس إشارات ذلك في القرآن، ويدعو إلى فهم القرآن على ضوء النظريات الحديثة، كأن ما وصلت اليه هذه الحضارة حقائق ثابتة.

ومن أبرز هؤلاء الشيخ طنطاوي جوهري[1] في تفسيره الذي سنتحدث عنه بعد قليل.

والحق أنَّ هذا الاتجاه من التفسير غير سديد، وذلك لأن العلم في قلق وتغيير دائم، وتطور مستمر، ينقض اليوم ما أقره بالأمس، والحقائق العلمية تبقى ثابتة في نظر العلماء حتى تدحضها حقائق اخرى، أما الفرضيات والنظريات فهي منذ أول وهلة في نظرهم لا تعد من الحقائق في شيء.

فكيف يجوز في المنهج الصحيح أن يحتكم في آيات الله التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها إلى تلك النظريات القلقة، والحقائق المعرضة للتغير؟

وقد عالج هذا الموضوع بعمق وأصالة الاستاذ سيد قطب رحمه الله فقال[2]:

(ولم يجيء القرآن ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي.. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يتلمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم.

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب، ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الانسانية، والحياة الانسانية. وإن وظيفته أن ينشيء تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الانسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور

---

(١) سنورد ترجمته بعد قليل.

(٢) «في ظلال القرآن» ٢/٩٥ ـ ٩٩.

نظاماً للحياة، يسمح للانسان أن يستخدم كل طاقاته.. ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل بالبحث العلمي ـ في الحدود المتاحة للانسان ـ وبالتجريب والتطبيق تصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الانسان ذاته: تصوره واعتقاده، ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته.. أما العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه، فهي موكولة إلى عقل الانسان، وتجاربه، وكشوفه، وفروضه، ونظرياته. بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه.. والقرآن يصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد؟ ويصحح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة له، ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه بخالقه وتناسق تكوينه، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه ـ وهو أي الانسان أحد أجزائه ـ ثم يدع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته... ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي.

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه.

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه. وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الانسان ذاته، الذي يكتشف هذه المعلومات وينتفع بها.. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الانسان. والقرآن يعالج بناء هذا الانسان نفسه. بناء شخصه وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الانساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه

الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الانسان السليم التصور والتفكير والشعور ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب ويخطىء ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب. وقد ضمن له موازين للتصور والتدبر والتفكير الصحيح.

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه.. لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه (حقائق علمية) مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الانساني ـ أياً كانت الأدوات المتاحة له ـ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي ـ بحكم المنهج العلمي الانساني ذاته ـ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري.

هذا بالقياس الى (الحقائق العلمية).. والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى (علمية).. ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الانسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها.. فهذه كلها ليست (حقائق علمية) حتى بالقياس الانساني. وإنما هي نظريات وفروض. كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق. ومن ثم فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والاضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة.

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة ـ أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا ـ تحتوي أولا على خطأ منهجي أساسي.. كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم:

الأول: هو الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن، والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم. أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقيقته. والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الانسان، وعقله، وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

والثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته. وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة، تعالج بناء الانسان، بناء يتفق ـ بقدر ما تسمح طبيعة الانسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الالهي، حتى لا يصطدم الانسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته. نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة.

والثالث: هو التأويل المستمر ـ مع التمحل والتكلف ـ لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات، التي لا تثبت ولا تستقر. وكل يوم يجد فيها جديد. وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما انه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا.

ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكتشفه العلم من نظريات ـ ومن حقائق ـ عن الكون والحياة والانسان في فهم القرآن.. كلا. إن هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان. ولقد قال الله سبحانه: ﴿سنريهم آياتنا في

الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق﴾[1].. ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا.

فكيف؟ ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة؟ هنا ينفع المثال:

يقول القرآن الكريم مثلا: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾[2].. ثم تكشف الملاحظات العلمية ان هناك موافقات دقيقة، وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون.. الأرض بهيئتها هذه، وببعد الشمس عنها هذا البعد، وبعد القمر عنها هذا البعد، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه، وبميل محورها هذا، وبتكوين سطحها هذا.. وبآلاف من الخصائص[3].. هي التي تصلح للحياة وتوائمها.. فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة، ولا مصادفة غير مقصودة.. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾[4] وتعميقه في تصورنا.. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه.. وهكذا..

هذا جائز ومطلوب.. ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علمياً هذه الأمثلة الأخرى: يقول القرآن الكريم: ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين﴾[5].. ثم توجد نظرية في النشوء والارتقاء لوالاس وداروين تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة، وأن هذه الخلية نشأت في الماء، وأنها تطورت حتى انتهت الى خلق الانسان.. فنحمل نحن على هذا النص

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة الفرقان: ٢.

(٣) أنظر مقالا في ذلك في كتاب «العلم يدعو للايمان».

(٤) سورة الفرقان: ٢.

(٥) سورة المؤمنون: ١٢.

لقرآني، ونلهث وراء النظرية لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن.

لا.. إن هذه النظرية أولا ليست نهائية. فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان، ما يكاد يغيرها نهائياً. وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه، ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما كاد يبطلها. وهي معرضة للنقض والبطلان.. بينما الحقيقة القرآنية نهائية. وليس من الضروري أن يكون هذا معناها. فهي تثبت فقط أصل نشأة الانسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة. وهي نهائية في النقطة التي تستهدفها وهي أصل النشأة الانسانية... وكفى.. ولا زيادة.

ويقول القرآن الكريم: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾[1].. فيثبت حقيقة نهائية عن الشمس، وهي أنها تجري.. ويقول العلم: إن الشمس تجري بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت بنحو ١٢ ميلا في الثانية، ولكنها في دورانها مع المجرة التي هي واحدة من نجومها تجري جميعاً بسرعة ١٧٠ ميلا في الثانية.. ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هي عين مدلول الآية القرآنية. إنّ هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية، قابلة للتعديل أو البطلان.. أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية ـ في أن الشمس تجري ـ وكفى.. فلا نعلق هذه بتلك أبداً..

وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في الانتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها، دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق.. وفرق بين هذا وذاك).

قال الأستاذ محمود شلتوت:

(... طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا أو

---

(١) سورة يس: ٣٨.

تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها، أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون القرآن على مقتضاها...)[1]

ثم قال:

(هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك؛ لأنَّ الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف.

وهي خاطئة من غير شك؛ لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

وهي خاطئة؛ لأنها تعرِّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان...)[2].

وكذلك فقد أشار الأستاذ محمد الصادق عرجون إلى فساد هذا المنهج فقال:

(وحاول بعضهم إخضاع آيات القرآن لنظريات زعم أصحابها أنه قد استقام لها الاستدلال، وأصبحت علماً مقرراً لا يحتمل الشك والارتياب، مع أنها نظريات لا تزال يعوزها الاستقرار العلمي، وتفتقد البرهان الذي يرفعها إلى مظنونات الحقائق بَلْهَ اليقين)[3].

إنَّ من الأمور النافعة مما يتصل باتجاه التفسير العلمي أن نقرر حقيقة لا شك فيها هي أن هذا الكتاب الكريم لم يرد فيه ما يتعارض مع ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، وأن الحقائق التي أشار إليها بصراحة تُعَدُّ من قبيل المعجزات التي تدل على أن هذا الكتاب من عند الله.

---

(١) «تفسير القرآن» ص ١١ ط ٤ سنة ١٩٦٦.

(٢) «تفسير القرآن» ص ١٣ ط ٤ سنة ١٩٦٦.

(٣) «نحو فهم لتفسير القرآن» ص١٩ ط الدار السعودية للنشر ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).

وتقدم بعض الدراسات العلمية للقرآن الشواهد الكثيرة على ذلك، مع استبعادنا لتكلف التأويل، ولحمل الآيات عن طريق الإشارة على بعض النظريات العلمية المكتشفة.

وقد توفر على هذا المعنى المفكر الفرنسي موريس بوكاي، فكتب كتاباً وازن فيه بين الكتب الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وقد ترجم مرتين في وقت واحد سنة ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م) إحداهما في بيروت بعنوان «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» والأخرى في القاهرة (دار المعارف) بعنوان «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ولم تذكر اسماء المترجمين في الطبعتين. ثم ترجمه الشيخ حسن خالد مفتي لبنان رحمه الله وطبعه المكتب الإسلامي في بيروت ١٤٠٧ بعنوان: التوراة والانجيل والقرآن والعلم.

وخرج هذا المؤلف بأنَّ الكتاب الذي هو من عند الله هو القرآن وحده، لأنه لم يأت فيه ما يعارض حقائق العلم، أما ما بأيدي الناس من كتب يصفونها بأنها مقدسة ويدعونها التوراة والإنجيل فهي مملوءة بخرافات وأباطيل لا يمكن أن تكون منزلة من عند الله.

إنَّ مثل هذه الدراسة تمثل جانباً من جوانب الجدة في هذا القرآن الكريم.. وقد جاء في وصفه أنه لا تنقضي عجائبه. وأحسب أن البشر سيكتشفون جوانب متعددة في هذا الكتاب العظيم كلما تقدَّم الزمان.

والشيء الذي نحذره هو التكلف والتمحل، وتحميل آيات القرآن ما لا تحمل، وأن يتخذ هذا المنهج ذريعة لصرف الناس عن ابتغاء الهدى الكامن في ثناياه، والانزلاق في بعض المزالق الفكرية المنحرفة التي تنادي بها بعض الفرق الضالة.

وإذا أمِنَّا هذا المحذور فربما كانت هذه الجوانب من البحث سبباً من أسباب إقناع نفر من الناس بالإيمان بهذا الكتاب ورسالته والدخول في الإسلام، وإن كنت أحسب أن هؤلاء قليل.

إنَّ الذي يضمن لنا اقتناع الناس بكتابنا وديننا هو التزامنا نحن المسلمين بما جاء في هذا الكتاب وتطبيقه في حياتنا، وأن نكون أقوياء أعزاء متحررين من العبودية المادية والمعنوية لأعدائنا. إنَّ هذا هو الذي يقنع الناس الراغبين في الخير والحق.

تفسير طنطاوي جوهري

هناك عدد من العلماء المعاصرين اتجهوا هذا الاتجاه في تفسير القرآن، وقد أشرنا إلى بعضهم في أول هذا البحث ولا شك في أن الشيخ طنطاوي جوهري أشهرهم، ولعله كان أكثرهم كتابة في هذا الموضوع، ولعله أشدُّهم تطرفاً.

قال الأستاذ حنفي أحمد:

(... الذي أفاض ـ يريد طنطاوي ـ فيه وأسهب، وبيَّن كثيراً من العلوم المختلفة التي تشير إليها الآيات، ولم يحاول الجمع بينها، فخفي بذلك كثيرٌ من حقيقة ومقدار العلم المنزل فيها، وعلى كل حال فقد كان ـ رحمه الله ـ من المجتهدين)[1].

ولد الأستاذ طنطاوي في قرية من قرى الشرقية بمصر سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) وتعلم في الأزهر، ودرس الانكليزية، ثم عمل في التدريس بمختلف درجاته، وتوفي سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٤٠ م) وترك كتباً عديدة من أشهرها تفسيره، وسنورد بعض ملاحظاتنا حول هذا التفسير.

وليس من شك عندي أنه ـ رحمه الله ـ كان يريد الخير ويسعى إليه، وربما أخطأ طريقه، وأنه كان يريد أن يُمكِّن للإسلام، وأن يسود العالم

(١) «التفسير العلمي للآيات الكونية» ص٧.

وينتشر في الدنيا، وأن يعود المسلمون إلى دينهم لتعود إليهم عزتهم ومكانتهم. ولذلك فلم يكن يتراءى له أمل في جهة من الجهات إلا ويسارع إليهاويتعاون معها، ولعلّ هذا المعنى هو الذي حمله على معاضدة الأستاذ حسن البنا في حركته الإسلامية الإصلاحية.[1]

وتتضح رغبته في الخير في كتاباته كما تشهد بذلك آثاره التي تركها[2] وتتضح هذه الرغبة أيضاً في كتابة الذين تحدثوا عنه ومنهم الأستاذ حسن البنا[3]، ومنهم الدكتور طه حسين[4] الذي كان من تلامذته في الجامعة وهو وإن أساء إليه وانتقده فقد صوّره صورة الانسان الساذج المحب للخير الراغب فيه.

أما ملاحظاتنا على تفسيره فهي:

١ ـ عنوان تفسيره: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» ويقع في ٢٦ جزءاً.

٢ ـ غرضه من تفسيره اصلاحي على أساس العلم والأخذ بمنجزاته والسير في طريقه، فهو ـ كما يقول ـ يرجو أن ينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، وأن يفوقوا الفرنجة في الزراعة والطب والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات.

وكان بإمكانه أن يصل إلى ذلك عن طريق تأليف كتاب يحمل هذه الدعوة، أما أن يعمـد إلى القرآن يحمله ذلك فهذا فيه نظر.

٣ ـ يدعو بأسلوب خطابي إلى أن يتعلم المسلمون العلوم الكونية، ويستدل لذلك بأن الآيات المتصلة بالفقه لا تزيد على (١٥٠) آية. يقول:

---

(١) انظر «مذكرات الدعوة والداعية» تأليف حسن البنا ص ١٦٨.
(٢) انظر كتبه في «الأعلام» و «معجم المطبوعات» لسركيس.
(٣) انظر مواضع عدة من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية».
(٤) «مذكرات طه حسين».

(لماذا كثر التأليف في الفقه، وقلّ جداً في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة... فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة. ويجهلوا علماً آياته كثيرة جداً؟ إن آباءنا برعوا في الفقه فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات)[1].

ويقول في موضع آخر:

(يا أمة الإسلام آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات. فما بالكم بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. لماذا لا نفعل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟.. إنك تقرأ في هذا «التفسير» خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فانها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر.. إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجاهلون المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام)[2].

٤ ـ كتابه يختلف عن الكتب الأخرى التي خاضت في موضوع التفسير العلمي، فتلك عالجت الموضوع من خلال بحث في آية أو آيات، أو عرضت للموضوع عامة. أما الأستاذ طنطاوي فقد فسر القرآن من أوله إلى آخره، يوجز في الأمور الشرعية ويتوسع في الأمور العلمية. إنه يفسر الآيات تفسيراً لفظياً مختصراً.. ثم يدخل في بحوث علمية (لطائف) أو (جواهر)، وهذه البحوث تتضمن أقوال عدد كبير من علماء الشرق والغرب في العصر الحديث، وقد جاء بها المؤلف ليبين أن القرآن قد سبق إلى هذه البحوث، ونبه على تلك العلوم، قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة. ونراه يضع في تفسيره كثيراً من صور النباتات والحيوانات

---

(١) «تفسير الجواهر» لطنطاوي جوهري. جـ ٢٥/٥٣.

(٢) «تفسير الجواهر» لطنطاوي جوهري جـ ٣/١٩ واننا لنأسف لهذه اللهجة التي لا تتفق وأخلاق العلماء الذين يعرفون لأسلافهم قدرهم وفضلهم. وكلامه لا يخلو من مغالطة وسطحية واضحتين.

ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم. والأمر الذي نستغربه أشد الاستغراب ان الرجل يتحدث في غير اختصاصه ولذلك فقد وقع في أخطاء علمية كبيرة ومضحكة.

٥ ـ يستشهد بنصوص لأناس متقدمين، مثل اخوان الصفا في رسائلهم[١]، وأفلاطون في جمهوريته، وقد يستشهد بما جاء في الأناجيل ولا سيما إنجيل برنابا[٢].

٦ ـ يستخرج كثيراً من الأمور والعلوم بواسطة حساب الجمل[٣] وهذا أمر غريب، فكيف يستقيم للفكر العلمي أن يتوصل إلى بعض العلوم عن طريق جمع قيم الحروف.

٧ ـ يستنتج من الآيات استنتاجات غريبة جداً ولأضْرِبْ على ذلك مثالاً واحداً:

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ألم﴾: [الأسرار الكيميائية في الحروف الهجائية للأمم الاسلامية في أوائل السور القرآنية] يقول في هذا البحث: (أنظر رعاك الله.. تأمل.. يقول الله: ا . ل . م . طس . حم وهكذا يقول لنا: أيها الناس إن الحروف الهجائية إليها تحلل الكلمات اللغوية، فما

---

(١) وإخوان الصفا هؤلاء قوم من أئمة القرامطة ـ كما قرر ذلك ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» ٥/١٠ وفي فتواه عن النصيرية ص١٩ طبع دار الإفتاء في الرياض ـ ورسائلهم احدى وخمسون رسالة، وفيها أساطير وفساد، وإسفاف وإلحاد، ويثني عليها مستشرقون ونصارى ومستعربون.

(٢) انظر ما كتبه حول هذا الانجيل محمد أبو زهرة في كتابه القيم «محاضرات في النصرانية» ص ٥٦ ـ ٦٧ وقد طبع هذا الانجيل السيد رشيد رضا.

(٣) حساب الجمل هو أن نأخذ مجموع قيم الحروف فيكون مجموعها مثلا موافقاً لتاريخ معين. وكثيراً ما يستعمل هذا الحساب في ذكر ولادة بعض الناس أو وفاتهم. وطريقة حسابه كما يلي: يعطى الحرف الأول من الحروف الأبجدية على ترتيب (أبجد، هوز، حطي) قيمة ١ والثاني قيمة ٢.. وهكذا حتى العشرة ثم تعطى الحروف الآتية قيم ٢٠، ٣٠، ٤٠ حتى المئة وتعطى الحروف الآتية قيم ٢٠٠، ٣٠٠ وهكذا.

من لغة في الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية.. ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها، وهذا هو القانون المسنون في سائر العلوم والفنون. ولا جرم ان العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة في التعليم، لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية، فإذا كانت العلوم التي هي آلة لغيرها، لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهي أولى بالتحليل، وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية. لا يُعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر، وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم)[1].

٨ ـ كان الرجل معجباً جداً بتفسيره، ولذلك فأنت ترى له تعقيبات على كلامه الذي يفسر به الآيات، وهذه التعقيبات مفعمة بالثناء على نفسه يقول:

(بمثل هذا تُفَسَّرُ هذه الآيات.. بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله).

٩ ـ خُدِعَ المؤلف بباطل صانعي الروحية الحديثة التي تدَّعي قدرتها على تحضير الأرواح. يقول الدكتور محمد حسين: (فأوسع تفسيره نقلاً عن مزاعمهم ودعاواهم مما أدخل الضعف والفساد على كتابه ذاك في كثير من المواضع)[2].

---

(١) «الجواهر» ٢/١٠ ـ ١١.

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» ص ٣٠٩ ط ٢ نشر مكتبة المنار بالكويت سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م).

الفصل الخامس

المنحى الإصلاحي الاجتماعي في التفسير

كان العالم الاسلامي في القرون المتأخرة ينطوي على كثير من عوامل الضعف والتخلف، وكان الجهل بأحكام الاسلام ومفاهيمه من جهة، واستحكام العادات المحلية من جهة أخرى، من أبرز ما يميز الوضع الاجتماعي والفكري لهذا العالم.

وقد كان هذا الواقع سبباً لقيام حركات اصلاحية عديدة، نجح بعضها نجاحاً ترك أثراً كبيراً في حياة المسلمين مثل حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي استطاعت أن تسيطر على جزيرة العرب، وعلى بعض أطراف البلاد العربية الأخرى، والتي تركت أعمق الآثار الفكرية في أذهان الناشئة المسلمة، من أقصى العالم إلى أقصاه، ويبدو أن هناك حركات أخرى قامت في العالم الاسلامي، ولم تلق من النجاح ما لقيته الحركة الوهابية.

ومن مشكلات العالم الاسلامي التي كانت تستدعي الحل موقفه من الحضارة الاوروبية الغازية، فلقد وقف بعض المسلمين من هذه الحضارة موقف المعجب المأخوذ بها، يسلم لها بكل شيء، ويستسلم لإرادتها، يرى ما ترى، وينكر ما تنكر، وقد أقبل أصحاب هذا الموقف على الثقافة الأوروبية، وتزودوا من علومها الشيء الكثير وحملوا في الوقت نفسه مخازيها ومساوئها، بينما وقف أكثر المسلمين من الحضارة الأوربية موقفاً سلبياً، ودعوا الى تركها، ولم يقبلوا على العلوم الحديثة لصدورها عن أوروبا.

ونستطيع ان نلخص واقع العالم الاسلامي في القرون الأخيرة: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر بما يأتي:

١ ـ كانت العادات والتقاليد القومية والمحلية لها قدسية في نفوس الجماهير.

٢ ـ كما كانت البدع والخرافات وبعض الطقوس الدخيلة تلبس ثوب الدين، وتخفي وراءه حقيقتها، وتحجب بمساوئها عظمة الاسلام وعدالته ورفعته.

٣ ـ وكان للعامة والغوغاء سلطان كبير، فلا يجرؤ أكثر العلماء على مخالفتهم.

٤ ـ كان أكثر علماء المسلمين يقفون من حضارة الغرب موقفاً سلبياً، لا يقتربون منها ولا يأخذون من علومها شيئاً.

٥ ـ تقاسمت دولُ أوروبا العالمَ الاسلاميَّ استعماراً ونفوذاً. وكان في جملة ما أعدت هذه الحضارة الغازية مخططات ومحاولات لتبعد المسلمين عن دينهم... ومن هذه المحاولات ما أعدته الدول المستعمرة لكثير من بلاد المسلمين من مناهج التعليم، وما قدمته من أفكار ونظريات، كالشيوعية والقومية، وكنظرية داروين ونظرية فرويد، وكالدعوة إلى الإلحاد[١] وكتشجيع الحركات الضالة المتسترة برداء من الدين مثل القاديانية[٢] والبهائية والبابية[٣]. وقد استغلت هذه الحركات المشبوهة المساوىء القائمة في بلاد المسلمين وانطلقت صيحاتها تنادي بضرورة الإصلاح.

---

(١) أنظر فصلاً موجزاً كتبه سيد كيلاني عن الالحاد في «ذيل الملل والنحل» ص ٩١ وهو ملحق لكتاب «الملل والنحل» للشهرستاني.

(٢) أنظر «القاديانية» لمحمد الخضر حسين و«ما هي القاديانية» للمودودي و«القادياني والقاديانية» للندوي و«سب القاديانيين للاسلام» لتقي الدين الهلالي و«القاديانية تاريخها وغاياتها» لمظاهري ونوار وما كتبه محمد البهي في «الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار» ص ٢٧ وما جاء في «ذيل الملل والنحل» ص ٥٦.

(٣) أنظر «القاديانية والبهائية» لمحمد الخضر حسين و«حقيقة البابية والبهائية» لمحسن عبد

وكذلك فإن المستشرقين لعبوا دوراً خطيراً في تسميم أفكار الناشئة، ودسِّ السمِّ في الدسم.

هذا بينما كانت هذه الحضارة تنمو صعداً في مجال الدراسات المعتمدة على التجربة، وتقدِّم للناس من ثمرات ذلك مخترعات هائلة، في وسائل الترفيه والتدمير على حدٍّ سواء، فالمدافع والمطابع، والطائرات الحربية والأدوات المنزلية، وما إلى ذلك، كانت تدخل بلاد المسلمين تاركة في نفوسهم إعجاباً بمن اخترعوها، وهم في نوم عميق وتخلف مذهل، وضعف متناهٍ.

وما زال العالم الاسلامي يتطلع الى اتجاه سليم يروم الاصلاح، حتى كان جمال الدين الافغاني الذي قام بحركة فكرية هامة، تصدع بصوت عامر بالايمان، معتز بالقرآن، يدعو الى معالجة الفساد الاجتماعي، والتأخر الفكري والحضاري، وذلك بالرجوع الى الاسلام الحق، وتحكيم نصوصه الثابتة من الكتاب والسنة. فكان من ذلك الاتجاه إلى إصلاح المجتمع من خلال تفسير آيات القرآن. وقام عدد من العلماء بحمل هذه المهمة مهمة التفسير الاصلاحي الاجتماعي سنذكر منهم الأفغاني ومحمد عبده والسيد محمد رشيد رضا رحمهم الله جميعاً.

جمال الدين الأفغاني

١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ

١٨٣٩ - ١٨٩٧ م

ولد جمال الدين في أسد أباد في افغانستان سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٩ م واسمه محمد بن صفدر، أما جمال الدين فلقبه[١]. وقد طوّف في أنحاء العالم

الحميد و« دراسات عن البابية والبهائية » لكردعلي ومحب الدين الخطيب وعلي منصور ومحمد فاضل.

(١) وذلك على عادة علماء القرون الماضية حيث يتخذ كل منهم لقباً الى جانب اسمه، ومن المتعارف عليه أن يكون اللقب مركباً اضافياً، الجزء الثاني فيه كلمة (الدين)، فابن تيمية اسمه أحمد ولقبه تقي الدين، والسلطان صلاح الدين الايوبي اسمه يوسف.

الاسلامي، يدعو الى اليقظة والى إصلاح الواقع المؤلم الذي كان فيه المسلمون. وقد كان يُطارَدُ من قبل السلطات الاستعمارية، ويهاجم من قبل كثير من الجامدين، واستطاع ان يصل الى مناصب عالية، في افغانستان وايران والدولة العلية.

كان ينشر في جريدة مصر بتوقيع مظهر بن وضاح، أو بتوقيع السيد الحسيني، أو بتوقيع السيد.

وأعظم مراحل حياته أثراً المرحلة التي قضاها في مصر، فقد قصد اليها سنة ١٢٨٨ هـ وتتلمذ عليه فيها عدد من الرجال، من أشهرهم الشيخ محمد عبده، الذي أفاد منه الشيء الكثير، ونفته الحكومة المصرية سنة ١٢٩٦، فواصل جهاده خارج مصر، والتقى مع الشيخ محمد عبده في باريس، حيث أصدرا جريدة العروة الوثقى.

كان يعرف العربية والفارسية والانجليزية والروسية.

وهناك مآخذ على الرجل تنتقد عليه، وسنشير إليها فيما بعد.

جمال الدين والتفسير الاصلاحي:

إن وجوه شبه قامت بين جمال الدين وبين المصلحين الذين تقدموه، وذلك في أساس الدعوة التي يبني الرجل حركته عليها، وهو الرجوع الى الدين.

غير ان الاختلاف بينه وبين اولئك المصلحين هو أن الرجل لم يكن واقفاً فقط على تخلف المسلمين، وانما كان فوق هذا كله مطلعاً على حياة الغرب، وواقع أوروبا المتقدم بالنسبة الى واقع المسلمين، ويبدو أن الفرق بين المستويين كان مذهلاً: رأى عند القوم واقعاً إيجابياً خالياً من كثير من عيوب المسلمين، رأى تحرراً من الخرافات الباطلة، التي سيطرت على كثير منهم، وتكاد تكون معرفته في دقتها بالغة الأوج، فهو قد زار بلاد

المسلمين (الهند ـ الحجاز ـ ايران ـ العراق ـ تركيا...) وزار أيضاً مدن اوروبا (لندن ـ باريس ـ ميونيخ ـ بطرس برغ...).

لقد كان واقع بلاد الغرب ذا أثر كبير في نفس جمال الدين من ناحيتين:

١ ـ الناحية الأولى: تتصل بالتقدم الحضاري والمادي الذي أحرزته أوروبا، وهو يرى أن الأسس التي اعتمدتها حتى اوصلتها الى هذه النتيجة أسس ينادي بها الاسلام ويرتضيها.

٢ ـ والناحية الثانية: تتصل باستعمار أوروبا لبلاد المسلمين، فلقد كان ذلك عاملاً دفعه الى الدعوة الى النهوض والتحرر من التبعية، وكان يأتي بأمثلة تلهب شعور الناس.

وقد تعرض الأفغاني في مجلة العروة الوثقى الى تفسير آيات من القرآن اختارها، فقد كتب سبع عشرة مقالة (من خمس وعشرين) في تفسير سبع عشرة آية من القرآن.

مثل: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[١].

﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا﴾[٢].

﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا﴾[٣].

يقول جمال الدين:

ان القرآن حي لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.
(٢) سورة الانفال: ٤٦.
(٣) سورة آل عمران: ١١٨.

أصيب من مقته فهو ممقوت، كتاب الله لم ينسخ، فارجعوا اليه، وحكموه في أموالكم وطباعكم، وما الله بغافل عما تعملون.

إن حركتنا الدينية بالدعوة الى القرآن كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها، مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ان لا يتحركوا الى طلب مجد أو تخلص من ذل.

... القرآن وحده هو سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، وما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم، فينبغي أن لا يعول عليه كوحي، وإنما نستأنس به كرأي... ولا نحمله على أكفنا مع القرآن في الدعوة اليه، وارشاد الامم الى تعاليمه.. وتفسيره وإضاعة الوقت في عرضه[1].

يقول الدكتور البهي:

(في سبيل مواجهة هذا الاستعمار طالب جمال الدين بمقاومته، ولأجل هذه المقاومة عمل على إيقاظ روح التضامن الاسلامي عن طريق: طلب التمسك بالقرآن، والغاء العصبية المذهبية، وطرح التقليد، وإعمال الاجتهاد في فهم القرآن، والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التي يعيش فيها المسلمون، وطرح الخرافات والبدع التي غيرت من جوهر الاسلام، والتي جعلته وسيلة سلبية في الحياة بدلاً من كونه حقيقة واضحة، وقوة ايجابية في السيطرة على الحياة وتوجيهها)[2].

---

(١) «الفكر الاسلامي الحديث» ص ٨٣/٨٤.

(٢) «الفكر الاسلامي الحديث» ص ٨٨.

الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

١٨٤٩ - ١٩٠٥ م

كانت أعظم ثمرة تركها الافغاني شخصية محمد عبده، الذي اتجه الى المنحى الاصلاحي في تفسير القرآن، ومحمد عبده قمة من قمم رجالاتنا في العصر الحاضر، كان له أكبر التأثير في مجال السياسية والدين والمجتمع والفكر.

ولد محمد عبده في شنرا، وهي قرية من قرى مديرية الغربية، من القطر المصري، سنة ١٢٦٦هـ واسمه الكامل محمد عبده بن حسن خيرالله، وتلقى علومه في الجامع الاحمدي، وفي الازهر، ثم اتيحت له فرصة لقاء الشيخ الافغاني، فتأثر به أكبر التأثر كما أسلفنا، وقد عمل مدرساً في الازهر ودار العلوم ومدرسة الالسن، واشتغل في الصحافة، حيث كان يذيع آراءه الاصلاحية، ونفي من مصر بعد اخفاق الثورة العرابية سنة ١٢٩٩ هـ، فأقام في بيروت، ثم ذهب الى باريس، ليصدر مع شيخه الافغاني جريدة «العروة الوثقى» التي عطلت بأمر من الحكومة الفرنسية، بعد أن صدر منها (١٨) عدداً. ولما عاد الى مصر سنة ١٣٠٦ هـ تولى منصب القضاء، ثم جعل مستشاراً في محكمة الاستئناف، ثم شغل منصب مفتي الديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ، وبقي فيه الى آخر حياته، وتوفي بالسرطان سنة ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م.

كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستلهم هدى القرآن، لارشاد المسلمين، واصلاحهم في جوانب حياتهم كلها، وكان من ذلك ما عرف بالتفسير الاصلاحي الاجتماعي.

ويتبين لنا من دراسة حياة محمد عبده، انه كان ملماً بالأوضاع الاجتماعية العامة، والاتجاهات الفكرية المختلفة، ومشاركاً في العلوم الأساسية، التي

تقوم عليها الحضارة الحديثة، ومدركاً لحقيقة خصوم الاسلام ومخططاتهم.

وهكذا فقد كان محمد عبده أقدر رجال عصره على تصوير الداء، والتفتيش عن الدواء الناجع في آيات القرآن وأحكامه.

واستطاع ان يترك مدرسة في التفسير ذات مكانة وتأثير، كان من أهم رجالها السيد رشيد رضا، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ أحمد مصطفى المراغي.

كان الشيخ محمد عبده من الناحية الفكرية يدعو الى أمرين:

١ ـ تحرير الفكر من قيد التقليد وكان يدعو الى استئناف الاجتهاد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة والرجوع الى الينابيع الأولى.

٢ ـ اصلاح اللغة العربية.

وكان من الناحية السياسية يركز جهوده في أمرين:

١ ـ كان يدعو الأمة الى معرفة حقها على حاكمها وأن عليها النصح للحاكم.

٢ ـ وكان يدعو الأمة الى مقاومة الاستعمار ومعارضة النفوذ الأجنبي في العالم الاسلامي.

وقد انصرف الرجل الى الجانب العلمي والديني والفكري، وان لذلك دوره في أية محاولة من محاولات الاصلاح لأن الفكر الذي يمد الحركة هو بمثابة الروح.

وقد تأثر الشيخ محمد عبده باللون الثقافي الذي تلقاه في الازهر. وباللون الروحي الذي تلقاه عن الشيخ درويش خضر الذي كان متصلاً بالحركة السنوسية. وباللون السياسي الذي تلقاه عن جمال الدين الافغاني وكانت دعوته الاصلاحية نامية متعددة الجوانب:

دعا الى اصلاح التعليم والأزهر. والى نبذ الفرقة وإلى الاجتماع وترك التعصب المذهبي وترك البدع وبناء الحياة على أساس الاسلام. ودعا الى قيام الأمة بالنصح للحاكم والى أن تعمل على التحرر من سلطان الاستعمار الغربي.

دعا الى أن يحيى الحاكم الشورى والى الأخذ بوسائل القوة التي تتبناها الدول الحديثة وتقوية الروح الجماعية.

يقول الشيخ محمد عبده:

ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم، ونترك ما ابتدعه اخلافهم مما اماتهم واماتنا معهم[1].

ويقول أيضاً:

فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي امرهم إلا إرجاعهم إليه، وما لم تقرع صيحته اعماق قلوبهم، وتزلزل هزته رواسي طباعهم، فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم. ولا بد أن يُؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن نزل القرآن بلغتهم، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفاً باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي[2].

آثاره في التفسير:

١ ـ تفسير جزء عمّ.

---

(١) «تاريخ الامام» ٢/٤١١ نقلاً عن كتاب «الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار» للدكتور البهي ص ١٤٦.

(٢) «تاريخ الامام» ٢/٥١٥ نقلاً عن كتاب «الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار» للدكتور البهي ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

٢ ـ تفسير سورة العصر: القاه على علماء مدينة الجزائر ووجّهائها سنة ١٣٢١ هـ.

٣ ـ بحوث تفسيرية كان ينشرها هنا وهناك.

٤ ـ تفسير المنار: من أوله الى الآية ١٢٦ من سورة النساء، وهذا الاخير مصوغ باسلوب السيد رشيد رضا، الذي كان يحضر الدروس، ثم يكتبها بلغته ويدفعها الى المطبعة ويطلع عليها الاستاذ الامام بعد جمع الحروف وقبل الطبع[١].

طريقته في التفسير:

١ ـ كان يلح في تفسيره على ان القرآن الكريم كتاب هداية، يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم، وانتظام أمورهم في الدنيا، والى ما فيه فوزهم ونجاتهم في الآخرة، فعلى الذين يريدون ان يفسروا القرآن أن يولوا هـذا الجانب العناية الكبرى، لأنه هو المهم، وكل ما عداه من مثل علوم الآلة[٢] وسواها فينبغي ان يكون تابعاً له ووسيلة.

ومن أجل ذلك فقد كان يشن حملة عنيفة على أولئك المفسرين، الذين يغرقون في بحوث نحوية وبلاغية وفقهية ومنطقية، ولا يلتفتون الى المقصد الأهم في القرآن.

وكان يرى أن يقتصر في تلك البحوث على المهم فقط.

٢ ـ كان يقرر ان المنهج السليم في التفسير أن نجعل القرآن مصدراً لعقائدنا ومذاهبنا لا ان تكون عقائدنا ومذاهبنا متحكمة في القرآن، وتفصيل هذه الخاصة يتضح من النظر في كتب التفسير التي ألفتها الفرق

---

(١) مقدمة «تفسير المنار» ١/١٥.

(٢) علوم الآلة تطلق على عدد من العلوم المساعدة في تقويم اللسان وتنظيم الفكر كالنحو والصرف والبلاغة والمنطق وما الى ذلك.

المتعددة ففي هذه الكتب نجد كل فرقة تجر آيات القرآن الى ما يؤيد عقائدها ومذاهبها.

٣ ـ وكان يصدر في تفسيره عن تحرر من المذاهب، ويهاجم التقليد، ويدعو الى تحطيم فكرة اغلاق باب الاجتهاد، ويكثر من الكلام حول هاتين النقطتين.

٤ ـ كان يتوسع فيما أغفله المفسرون، أو قصروا فيه، ويختصر فيما توسعوا فيه من مباحث النحو والاعراب والبلاغة.

أما موقفه من كتب التفسير المتقدمة، فمما لا شك فيه ان الرجل قد درس هذه الكتب ووعى معظمها، وانتفع بها انتفاعاً كبيراً، ولكنه قبل القاء درسه لم يكن يقرأ في شيء منها، حتى لا يتأثر، وان كان تلميذه السيد رشيد رضا يقول: انه كان يتوكأ على عبارة الجلالين[1].

٥ ـ كان يقف من الاسرائيليات موقف الناقد لا يرتضي أن يأخذها ويوردها في التفسير.

٦ ـ وكذلك فإن الاحاديث الضعيفة والموضوعة، قلما كانت ترد في تفسيره، على أن الرجل لم يكن في علم الحديث بدرجة تلميذه السيد رشيد رضا[2].

٧ ـ وكان للحرية العقلية شأن كبير عنده، حتى أنه ليبيح لنفسه ان يرد قولاً اجتمع عليه جمهور العلماء. ويبدو انه كان يسرف في تقدير العقل، ويعطيه من القيمة فوق ما يستحق، ويحمله أكثر مما يطيق.

٨ ـ لم يخض في تفسيره في تعيين ما أبهمه القرآن، وكان يسلم بالأمور

---

(١) «تفسير المنار» ١/١٥.

(٢) أنظر «السنة ومكانتها في التشريع» ط٢ ص٣٠.

الغيبية، ولا يتحدث عنها الا بمقدار ما توحي به النصوص الشرعية الصحيحة.

هذا أصل من أصوله يدركها دارس آثاره في التفسير، على انه كان يخالف هذا الأصل في حالات نادرة، تحت تأثير الناحية العقلية عليه[1]. ولم يكن يرضى التفسير الاشاري الذي تعتمده الباطنية والصوفية، والذي اعتمدت عليه مدرسة التفسير العلمي كما رأيت.

٩ ـ نهج في تفسيره منهجاً أدبياً اجتماعياً، فكان يكشف عن بلاغة القرآن بأسلوب مشرق جذاب، ويعالج مشاكل المسلمين بما يرشد إليه القرآن، ويتعرض الى سنن الله الكونية فيبينها، ويبين أن القرآن متمش مع هذه السنن لا يصادمها، لانها من مستلزمات الفطرة.

١٠ ـ في تفسيره استجلاء لحكم التشريع العديدة، التي كانت مقصودة من الاحكام الواردة في آيات القرآن، كما كان في تفسيره ردود على الملحدين من الاوروبيين، وردود على الجامدين من المتدينين.

كلمة في الضجة حول محمد عبده وجمال الدين:

أما هذه الضجة القائمة الآن حول اتهامات توجه للسيد جمال الدين وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده فان رأينا فيها كما يلي:

١ ـ ليس هناك أحد معصوم، فلا ننفي عنهما الاغلاط، بل ان لديهما عدداً من الآراء والاجتهادات لا نقرهما عليها، وما أكثر الهفوات التي يقع فيها الزعماء والعلماء في كل عصر.

٢ ـ كثير من النقاد الذين يثيرون هذه الضجة يغفلون الزمن والظروف

---

(١) أنظر ردّ محمد الصادق عرجون على الشيخ محمد عبده في صدد تفسيره لسورة الفيل ص ٣٢ ـ ٣٦ من كتابه «نحو منهج لتفسير القرآن» ورده عليه في تفسيره للملائكة والشياطين ص ٣٧ ـ ٣٩.

الاجتماعية والسياسية التي كانت تحيط بالمسلمين، فالحضارة الاوروبية التي بهرتهما لم تكن بعد قد ظهرت على حقيقتها، ولم يسبق أن احتك المسلمون بها كما حصل فيما بعد، ولم تكن الحضارة الاوروبية قد انقسمت على نفسها هذا الانقسام الذي نشهده الآن، والذي نرى من خلاله المعايب والنقائص التي تنطوي عليها حضارة اوروبا. كل معسكر يكشف عن عوار المعسكر المقابل.

٣ - يبالغ بعض هؤلاء النقاد في ذكر هذه العيوب، ويعتمدون على حجج واهية، وقد يذهبون في تحميل بعض الالفاظ ما لا يحتمل.

٤ - يغفلون النواحي الخيّرة الطيبة في الرجلين[١] ويبدون معايبهما، ويقلبون محاسنهما الى مساوىء وهذا ظلم مبين.

السيد محمد رشيد رضا

١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ

١٨٦٥ - ١٩٣٥ م

لا بد من أن نخص السيد محمد رشيد رضا بكلمة، لأن «تفسير المنار» ينسب إليه أكثر مما ينسب للشيخ محمد عبده، ولأنه من أبلغ تلامذة الشيخ محمد عبده، ومن أوسعهم نشراً لعلمه وآرائه. ولد السيد محمد رشيد بن علي رضا في القلمون، وهي قرية بجانب طرابلس الشام سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م.

وتلقى علومه الأولية في بلاد الشام، ثم رحل الى مصر سنة ١٣١٥ هـ، واتصل بالشيخ محمد عبده، وأصدر مجلة المنار التي كتب فيها تفسير المنار، وتوفي فجأة في مصر سنة ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ م.

---

(١) انظر ما ذكره الندوي عن النواحي الطيبة فيهما، وذلك في كتابه «موقف العالم الاسلامي تجاه الحضارة الغربية» ص ٧٢ الى ٧٥ والسباعي في «السنة ومكانتها» ص ٣٠ ومحمد بهجة الأثري في «الاتجاهات الحديثة في الاسلام» من ٢٧ إلى ٣٦.

مقدار تفسير السيد محمد رشيد رضا:

إنَّ مقدار ما تركه السيد محمد رشيد رضا من التفسير كبير، وإن كان لم يتم تفسير القرآن كله، فقد فسر من أول القرآن إلى ما يقرب من آخر سورة يوسف، اي أكثر من ثلاثة عشر جزءاً من القرآن، وقد استغرق هذا القدر (١٢) مجلداً كبيراً، وينتهي الجزء الثاني عشر عند الآية (٥٣) من سورة يوسف.

ولم يبق من سورة يوسف إلا (١٠) آيات فقط، قام باكمال تفسيرها بعد وفاته استاذنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وطبع تفسير سورة يوسف مستقلاً في جزء يحمل اسم السيد محمد رشيد رضا.

وفسر أيضاً من السور القصيرة السور الآتية: الكوثر، والكافرون، والاخلاص، والمعوذتين.

ومن المتوقع أنه لو كان قد تفرَّغ لتفسير القرآن لأتمه، ولكنه كان يربط التفسير بالمجلة.

ملاحظات حول «تفسير المنار»:

١ ـ القسم الأول من تفسيره ليس له فيه إلا الصياغة، أما الافكار والمعاني فللاستاذ الامام. وقد استقل الشيخ رشيد بكتابة التفسير منذ الآية ١٢٦ من سورة النساء حتى أواخر سورة يوسف حيث توفاه الله.

٢ ـ كان يعنى بتفسير القرآن بالقرآن، ان وجد، وتفسير القرآن بالسنة، واطلاع السيد رشيد على السنة اطلاع جيد يفوق اطلاع شيخه كثيراً.

قال أستاذنا السباعي: [.. ولكنه منذ استلم لواء الاصلاح بعد وفاة الامام محمد عبده وأخذ يخوض غمار الميادين الفقهية والحديثية وغيرهما

وأصبح مرجع المسلمين في أنحاء العالم في كل ما يعرض لهم من مشكلات كثرت بضاعته من الحديث، وخبرته بعلومه حتى غدا آخر الأمر حامل لواء السنة وابرز اعلامها بمصر خاصة][1].

ثم بعد ذلك يستعمل عقله الذي كان متحرراً تحرراً تاماً من كل ما قاله المفسرون. وقد حدّث الاستاذ عبد الرحمن عاصم وهو ابن أخي السيد رشيد رضا أنه لم يكن يقرأ في التفاسير إلا بعد ان ينتهي من كتابة ما فهمه من الآية.

٣ ـ وهدفه من التفسير هو ان يعرض ما جاء في كتاب الله، مما فيه إرشاد للناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيوية والأخروية.

٤ ـ يتبع في تفسيره المنهج الذي تحدثنا عنه في تفسير الشيخ محمد عبده استاذه، ولكنه بعد وفاة شيخه واستقلاله بالعمل خالف هذا المنهج. (بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تقسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إليها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها)[2].

٥ ـ كان له استقصاء عجيب ببدع المسلمين التي صرفتهم عن السنة وقعدت بهم عن سبيل المجد.

وكـان كثير الرد على المفسرين، وقد يكون في رده كثير من العنف. وكان يتولى الرد على كثير من الآراء المنحرفة التي تتصدى للاسلام. ومما يؤخذ على الرجل في تفسيره هذا:

---

(١) «السنة ومكانتها» ط ٢ ص ٣٠.

(٢) «تفسير المنار» ١٦/١.

الاعتداد الزائد بعلمه الذي يجاوز الحد. ومخالفته العلماء في عدد من القضايا. ونقله من الانجيل على الرغم مما يعرف عنه من انكار رواية الاسرائيليات، ومهاجمته المفسرين الذين يتساهلون في هذا الموضوع بعنف شديد.

* * *

الفصل السادس

إتجاهات أخرى

ذكرنا في الفصول السابقة أهم اتجاهات التفسير، وهناك اتجاهات أخرى سنكتفي بالإشارة الموجزة اليها، ويمكن للراغب في التوسع أن يقف على تفصيل القول فيها في الكتب الخاصة في مدارس التفسير.

١ ـ التفسير الموضوعي: وهذا اللون من التفسير يتناول موضوعاً واحداً في القرآن، يعمد المفسر فيه إلى ذكر الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، ويشرحها ويفصل القول فيها، ككتب أحكام القرآن التي جمع مؤلفوها الآيات المتصلة بالاحكام، وهي عديدة أهمها للجصاص ولابن العربي.

وككتب «مجاز القرآن» وهي عديدة أهمها للشريف الرضي والعز بن عبد السلام.

وككتاب «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم.

وككتاب «الإنسان في القرآن» لعباس محمود العقاد.

ب ـ التفسير الاشاري: وهو التفسير الذي يعتمد الاشارة ويستنبط من الكلمة أو الجملة استنباطات كثيرة، وقد برع فيه المتصوفة.

جـ ـ التفسير الفقهي: وهو التفسير الذي يولي موضوع الأحكام الفقهية

عناية خاصة، ويمكن ان نعدَّ كتاب القرطبي[1] وكتاب الخطيب الشربيني من الأمثلة عليه.

د ـ أنواع أخر كالتفسير الفلسفي وتفاسير الفرق الضالة وما الى ذلك.

(١) وكتابه هو «الجامع لأحكام القرآن» وأنظر دراسة محمد أديب صالح لهذا الكتاب وطريقته في التفسير في كتابه «من الجامع لأحكام القرآن».

خاتمة

عرضنا في الصفحات السابقة لمحات موجزة في القرآن، وكتابته، وتدوينه، واعجازه، وعلومه، وفي اتجاهات المفسرين المختلفة. وأرجو أن أكون بهذه اللمحات قد أوضحت المعالم وأعنت الراغب في التوسع على العودة الى المصادر والأمهات، وأرجو ان تكون هذه الدراسة سبيلاً يدفعنا للعمل بالقرآن، ولتحكيمه في حياتنا، حتى نحوز السعادة الدنيوية والفوز يوم القيامة.

ونسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من أهل القرآن ﴿ربنا لا تُـزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

﴿ربنا لا تؤاخدنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

* * *